

شعر السري الرفاء

في ضوء المقاييس البلاغية والنقدية

تأليف

الدكتور المحمدي عبد العزيز الحناوي

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤ م

دار الطباعة المحمدية

٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة



شعر السري الرفاء

في ضوء المقاييس البلاغية والنقدية

تأليف

الدكتور المحمدي عبد العزيز الحناوي

أستاذ البلاغه والنقد المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذا بحث أتناول فيه شعر أديب من شعراء الموصل في القرن الرابع الهجري، هو السري الرفاء ، الذي تميز شعره بالعذوبة والسلاسة في أكثره وتحلى بالتشبيهات الرائقة الرائعة، وتجمل بحسن الوصف ، وبديع الخيال ، شاعر لم ينل نصيباً كبيراً من اهتمام الباحثين ، ولم يحظ بتداول شعره بين الدارسين ، وإن شعره في تذوقه يشبه إلى حد كبير شعر البحتري، ويماثل في جماله وروعة خياله شعر الأندلسيين ، الذين اشتهروا بحسن التعبير ، وجمال الأداء ، وحلاوة الألفاظ ، وهذا ما دعاني إلى دراسة شعره .

وقد أقمت هذه الدراسة على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بالسري الرفاء ؛ أوضحت فيه اسمه ولقبه وكنيته ، وبعضاً من أخباره ، ثم ذكرت آثاره العلمية ، وانتقلت إلى الحديث عن شاعريته ، مبيناً أنه شاعر جال في فنون شعرية كثيرة ، وكان متميزاً فيها بعباراته المشرقة ، وأوصافه المبدعة ، وحسن مطالعه ، وإشراقة ديباجته ، ثم أبنت جانباً من أخلاقه حسبما اتضح من شعره ، ذاكراً عقيدته التي تعصب لها وهي : التشيع .

والمبحث الثاني : الفنون الشعرية عند السري : درست في هذا المبحث

فنون الشعر عند هذا الشاعر المبدع ، مظهراً براعته فى الالتزام بالمقاييس والخصائص التى تعارف عليها الشعراء وأقرها النقاد فى عصره ، موضحاً نواحى بلاغية كثيرة فى شعره من بيان وبديع ، مبيناً أنه تميز أكثر ماتميز بالتشبيهات اللطيفة والاستعارات الجميلة والطباق والجناس .

والمبحث الثالث : سرقات السرى الشعرية :

تناولت فيه دراسة طائفة من شعر السرى المأخوذ من غيره ، أخذاً حسناً أو قبيحاً ، وخاصة ما أخذه من المتنبى ، ذاكراً نوع الأخذ حسبما حدده البلاغيون المتأخرون أمثال القزوينى وسعد الدين التفتازانى ، ثم أوضحت مابين السرى الرفاء والخالديين من تسارق أو توارد مرجحاً أن الخالديين هما اللذان سرقا من السرى ، مدللا على ذلك بكثرة تظلمه وشكواه من إغارتهما على شعره ، بينما لم يتظلما منه ولم يشكواه إلى أحد ، ومدللا أيضاً بظهور روح السرى فيما ورد من تسارق ، وهى أشعار فى وصف الخمر واستهداء الشرب ، ووصف الطبيعة ، تميزت بالسلاسة والعذوبة واللين ، التى اشتهر بها السرى ، وأولع بها ، كذلك تميزت بتشبيهاته الحسية ، واستعاراته المأخوذة من مناظر الطبيعة الحية ، وهـذا مايؤكد دعواه بأن الخالديين قد سرقا شعره .

ولعلى بذلك أكون قد وفقت — بعون الله تعالى — فى إبراز شاعرية هذا الشاعر ، وإظهار ما له من قوة تأثير وصدق عاطفة ، وكشف ما له من ثراء فى فنون الشعر ، وغناء فى الأدب بعامة .

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

القاهرة فى { ٧ من المحرم ١٤٠٥
٢ أكتوبر ١٩٨٤

الدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى



المبحث الأول

التعريف بالسرى الرفاء

اسمه ولقبه وكنيته وحياته :

هو : السرى بن أحمد بن السرى الكندى الرفاء الموصلى الشاعر المشهور ، وكنيته : أبو الحسن(١).

كان فى صباه يرفو ويطرز فى دكان بالموصل ، وهو مع ذلك يتولع بالأدب ، وينظم الشعر ، ولم يزل حتى جاد شعره ، ومهر فيه ، ثم قصد سيف الدولة بن حمدان بحلب ، ومدحه وأقام عنده مدة ، ثم انتقل إلى بغداد ، ومدح الوزير المهلبى ، وجماعة من رؤسائها ، ونفق شعره وراج(٢).

وقد ذكره الثعالبى فى اليتيمة ، وأورد له شعرا جيدا ، وأثنى عليه قائلا : « السرى وما أدراك من السرى ؟ صاحب سر الشعر ، الجامع بين نظم عقود الدر ، والنفث فى عقد السحر ، ولله دره ، ما أعذب بحره ، وأصفى قطره ، وأعجب أمره »(٣).

بعض من أخباره :

يذكر الخطيب البغدادى(٤) نبذة من أخباره فيقول : « كان بينه وبين

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان لابن خلكان ٢ /٣٥٩
(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٥٩
(٣) اليتيمة ٢ / ١١٧
(٤) فى تاريخ بغداد أو مدينة السلام ٩ / ١٩٤

أبى بكر وأبى عثمان : محمد وسعيد ابنى هاشم الخالديين حالة غير جميلة ، ولبعضهم فى بعض هجاء كثير ، فآذاه الخالديان أذى شديدا ، وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره ، فانحدر إلى بغداد ، ومدح بها الوزير أبا محمد المهلبى ، فانحدر الخالديان وراءه ، ودخلا إلى المهلبى وسلبا ثريا عنده ، فلم يحظ منه بطائل ، وحصلا فى جملة المهلبى ينادمانه ، وجعلا همهما ثلب السرى والوقيعة فيه ، ودخلا إلى الرؤساء والأكابر ببغداد ، ففعل به مثل ذلك عندهم ، وأقام ببغداد يتكلم عنهما ويهجوهما ، ويقال : إنه عدم القوت فضلا عن غيره ، ودفع إلى الوراقة ؛ فجلس يورق شعره ويبيعه ، ثم نسخ لغيره بالأجرة ، وركبه الدين ، ومات ببغداد على تلك الحال بعيد سنة ستين وثلاثمائة » .

والذى يظهر من كلام المؤرخين غير الخطيب البغدادى أن سوء حالته فى العيش كانت فى فترة من حياته ، ثم تيسرت حالته فى أخريات أيامه ، وذلك حينما اتصل بسيف الدولة ، ثم بالمهلبى وغيره بعد وفاة سيف الدوله .

يقول الثعالبى(١) : « ولم يزل السرى (الرفاء) فى ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب ، واتصل بسيف الدولة(٢) واستكثر من المدح له ، فطلع سعده بعد الأفول ، وبعد صيته بعد خمول ، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بنى حمدان ، ورؤساء الشام والعراق ، ولما توفى سيف الدولة ورد السرى

---

(١) فى اليتيمة ٢ / ١١٩

(٢) هو أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان أمير حلب ، وواسطة عقد أمراء وملوك بنى حمدان ، كان قبلة آمال الشعراء ، حتى قيل : إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك — بعد الخلفاء — ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعراء ونجوم الدهر ، وكان أديبا شاعرا محبا لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به — انظر اليتيمه ١ / ١٧

بغداد ، ومدح المهلبي وغيره من الصدور ، فارتفق بهم ، وارتزق معهم ، وحسنت حاله ، وسار شعره في الآفاق ، ونظم حاشيتي الشام والعراق ، وسافر كلامه إلى خراسان وسائر البلدان » .

ويافوت الحموي يؤكد ماقاله الثعالبي ، ذاكرا تقلب عيشه بين اليسر والعسر ، فيقول(١) : « كتب إليه في ذلك الحال صديق له يسأله عن خبره وحاله في حرفته ، فكتب إليه(٢) :

يكفيك من جملة أخباري يسرى من الحب وإعسارى

في سوقة أفضلهم مرتد نقصا ففضلي بينهم عارى

وكانت الإبرة فيما مضى صائنة وجهي وأشعارى

فأصبح الرزق بها ضيقا كأنه من ثقبها جارى

ويقول الحموي(٣) : « فلما جاد شعره انتقل من حرفة الرفو إلى حرفة الأدب، واشتغل بالوراقة ، فكان ينسخ ديوان شعر كشاجم،وكان مغرى به ، وكان يدس فيما يكتبه أحسن شعر الخالديين(٤) ليزيد في حجم ما ينسخه وينفق سوقه، ويشنع بذلك على الخالديين لعداوة بينه وبينهما ،فكان يدعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره ، فكان فيما يدسه من شعرهما في ديوان كشاجم ، يتوخى إثبات مدعاه ، ولم يزل السرى في ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب ، واتصل بسيف الدولة ومدحه وأقام بحضرته ، فاشتهر

---

(١) معجم الأدباء ١١ / ١٨٣ ، ١٨٤ مطبوعات دار المأمون نشر دار إحياء التراث العربي ، بيروت

(٢) والأبيات في ديوان السرى الرفاء ٢/ ٢٨٩ ط بغداد، مع اختلاف في الألفاظ بين ما في الديوان وما في معجم الأدباء

(٣) معجم الأباء ١١ / ١٨٤

(٤) سيأتي التعريف بالخالدين - إن شاء الله - اثناء ذكر سرقاتهما من السرى وذلك في مبحث خاص

وبعد صيته ،ونفق سوق شعره، عند أمراء بنى حمدان ورؤساء الشام والعراق، ولما مات سيف الدولة انتقل السرى إلى بغداد ، ومدح الوزير المهلبي وغيره من الأعيان والصدور ... » .

آثاره العلمية :

يذكر ياقوت الحموى[1] أن للسرى تصانيف منها :

١ — كتاب الديرة . ٢ — كتاب المحب والمحبوب .

٣ — كتاب المشموم والمشروب ٤ — ديوان شعريدخل فى مجلدين .

كما يذكر الثعالبى[2] أن له أشعاراً أخرى، ليست فى ديوان شعره ، بل فى مجلدة بخط السرى استصحبها أبو نصر سهل بن المرزبان من بغداد .

وفاة السرى : اختلف أصحاب التراجم فى تاريخ وفاة السرى الرفاء :

فقد ذكر ابن الأثير[3] أن السرى الرفاء توفى سنة ٣٦٠ هـ .

ويذكر ابن كثير[4] أن السرى الرفاء توفى سنة ٣٦٠هـ ، يقول : وذكر ابن الجوزى أنه توفى سنة ٣٦٢ هـ ، وقيل : إنه توفى سنة ٣٦٤ هـ ، وقيل سنة ٣٦٥ هـ ، وقيل ٣٤٦ هـ ، وقيل ٣٤٤ هـ .

وصاحب تاريخ بغداد[5] يقول : إنه مات ببغداد سنة ستين وثلاثمائة، كما يذكر ابن خلكان[6] أن وفاته كانت فى سنة نيف وستين وثلاثمائة ببغداد

وبذلك نرى أن وفاته فى الراجح ما بين سنة ٣٦٠ هـ وسنة ٣٦٦هـ .

---

(١) فى معجم الأدباء ١١ / ١٨٥

(٢) فى اليتيمة ٢ / ١١٧ ، ١١٨

(٣) فى كتابه الكامل فى التاريخ ٧ / ٤٤

(٤) فى البداية والنهاية ١١ / ٢٧٠ ، ٢٧٤

(٥) أنظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٩ / ١٩٤

(٦) فى وفيات الأعيان ٢ / ٣٦٢

شاعريته

والسرى الرفاء شاعر موهوب « انتقل من تطريز الثياب إلى تطريز الكتاب »(١).

وقد قال الشعر فى أغراض شتى : قاله فى المدح ، والهجاء ، والوصف ، والغزل والنسيب ، وتذكر أيام الصبا ومواطن الهوى ، والعتاب والرثاء والفخر .

وتميز بألفاظه العذبة ، وعباراته المشرقة ، وأوصافه المبدعة ، وروعة الأداء ، وجمال التنسيق ، وحسن المطلع ، وإشراقة الديباجة ، وسلامة التخلص ، بأسلوب سهل ممتنع ، وسلاسة فيما يقتضى السلاسة ، وجزالة فيما يستلزم الجزالة ، ولا عجب أن وضعه المؤرخون فى طائفة الأدباء المرموقين ، والشعراء المبدعين .

فهاهو ذا ياقوت الحموى(٢) ينعته بالشاعر المشهور ، الذى ينظم الشعر ويجيد فيه .

وابن خلكان(٣) يقول فيه : « كان شاعرا مطبوعا ، عذب الألفاظ ، مليح المأخذ ، كثير الافتنان فى التشبيهات والأوصاف ، ولم يكن له رواء ولا منظر ، ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر ، وقد عمل شعره قبل وفاته فى نحو ثلاثمائة ورقة ، ثم زاد بعد ذلك ، وقد عمله بعض المحدثين الأدباء على حروف المعجم » .

---

(١) اليتيمة ٢ / ١١٨

(٢) فى معجم الأدباء ١١ / ١٨٢

(٣) فى وفيات الأعيان ٢ / ٣٦٠

والثعالبي(١) — وهو من هو في معرفة النظم والنثر، وصاحب القلم الثر في فنون الكلام، والذي يتميز بالفصاحة والبلاغة واللغة والأخبار — يعقد بابا طويلا في شعراء الموصل وغرر أشعارهم، ويبدأ بالسرى الرفاء، ذاكرا له فضله . موردا له بعضا من أشعاره، مشيرا إلى أن ما أورده غيض من فيض، وإذا لم تكن هناك شهادة غير شهادة الثعالبي لهـــذا الشاعر لكفى ذلك دليلا على فضله، وحسن تأتيه لألوان القول، وفنون الشعر .

يقول الثعالبي (٢) في بيان محاسن شعر السرى . « وقد أخرجت من شعره مايكتب على جبهة الدهر، ويعلق في كعبة الفكر، فكتبت منه محاسن وملحا، وبدائع وطرفا، كأنها أطواق الحمام، وصدور البزاة (٣) البيض، وأجنحة الطواويس . وسوالف الغزلان، ونهود العـــذارى الحسان، وغمزات الحدق الملاح، وبدأت بصدر من أخباره، وبطرف لأشعاره » . ويقول . «وكنت أحسب أنني أستغرقت شعره لجمعي فيه بين لمع أنشدنيها وأنسخنيها أبو بكر الخوارزمي (٤)، وبين ديوان شعره المجلوب من بغداد، وهو أول ما رأيته مما أنفذه أبو عبد الله بن حامد الخوارزمي

---

(١) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩، كان إماما في اللغة والأخبار وأيام الناس، له التصانيف الكبار في النظم والنثر والبلاغة والفصاحة، وأكبر كتبه : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، وسمى الثعالبي لأنه كان رفاء يخيط جلود الثعالب، وله أشعار كثيرة مليحة .

(٢) في اليتيمة ٢/١١٧/١١٩

(٣) البزاة : الثياب

(٤) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور، ويقال له: =

من بغداد إلى أبى بكر – الخوارزمى – وبين المجلدة بخط سرى التى وقعت إلى من جهة أبى نصر (١) ، وفيها زيادات كثيرة على ما فى الديوان ، فقرأت فى كتاب الوساطة للقاضى الجرجانى أبى الحسن على بن عبد العزيز أبياتا أنشدها للسرى فى جملة ما أنشده لأكابر الشعراء ، مما يتضمن الاستعارة الحسنة ، مع إحكام الصنعة : وعذوبة اللفظ .

وهى [من الطويل] (٢)

أقول لحنان العشى المغرد   يهز صفيح البارق المتوقد (٣)
تبسم عن رى البلاد صبيبة   ولم يبتسم إلا لإنجاز موعد (٤)

ومنها : [من الطويل] (٥)

ويادبرها الشرق لازال رائح   يحل عقود المزن فيك ومغتد (٦)

= الطبرخزى أيضا ، لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان ، فركب من الاسمين نسبة – انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٤٠١/٤ ، والكامل لابن الأثير ٩ / ١٠١ ، وبغية الوعاة ٥١ ، والوافى للصفدى ٣ / ١٩١ والشذرات ١٠٥/٣

(١) يقصد أبا نصر سهل المرزبان .

(٢) أنظر ديوان السرى الرفاء ١٣٧/٢ .

(٣) حنان : السحاب ذو الرعد ، البارق : ذو برق .

(٤) رى : من روى الماء : شرب بعد عطش ، صبيبه : مطره وماؤه ، وفى الديوان : حبيه : وهو السحاب المعترض كالجبل .

(٥) الديوان ١٣٨/٢

(٦) المزن : جمع مزنة وهى السحابة البيضاء ، وهى أيضا : المطرة – بسكون – الطاء – مختار الصحاح ٦٢٣ .

عليلة أنفاس الرياح كأنما يعل بماء الورد نرجسها الندى (١)
يشق جيوب الورد فى جنباته نسيم متى ينظر إلى الماء يبرد

فأعجبت جدا بها، وتعجبت منها. وتأسفت على ما فاتنى من أخواتها من هذه القصيدة وغيرها » .

والسرى بحق قد أورد فى هذه القطعة استعارت حسنة ؛ فقد جعل من الجنان طائرا ثم حذف الطائر ورمز له بشىء من لوازمه وهو كلمة « المغرد » على سبيل الاستعارة المكنية ، كما أثبت لكلمة « صبيبه » أى مطره التبسم ، وهذه استعارة تخييلية ، ويلازمها الاستعارة المكنية ، لأن التبسم من لوازم الإنسان ، فيكون قد شبه الصبيب بالإنسان ثم حذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه وهو التبسم .

وفى قوله : « عليلة أنفاس الرياح » استعارة لطيفة ، فقد شبه الرياح بالإنسان ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه وهو : أنفاس، ومثلها كلمة « عليلة » .

وناهيك بجمال البيت الأخير الذى يعبر فيه عن النسمات وهى تسير بين جنبات الورد وكأنها تشق جيوبا حينما تفتق الزهور ، ثم يجعل النسمات تنظر إلى الماء فيبرد .

وقد كان القاضى الجرجانى على حق حيث عد هذه الشواهد من الاستعارة الحسنة ، منبها إلى أن الاستعارة إذا جاءتك من مثل هذه الشواهد « فقد جاءك الحسن والإحسان ، وقد أصبت ما أردت من إحكام الصنعة ، وعذوبة اللفظ » (٢) .

---

(١) يعل: من عل بمعنى شرب، والعلل:الشرب، عليلة : مريضة،الندى: من ندي الشيء : ابتل فهو ند أي مبتل . — مختار الصحاح ٦٥٣ ، ٤٥١

(٢) انظر الوساطة ٣٤ — ٣٩

وحسبك دليلا على قوة شعر السرى، وجمال تعبيره، أن يستشهد القاضى الجرجانى فى الاستعارة الحسنة بقطعة من شعر الرفاء، وليست هى القطعة الوحيدة فى شعره التى تملأك إعجابا وسحرا، فأكثر شعره له هذه الروعة والإبداع، والجمال والسحر، وسوف نورد — إن شاء الله — ألوانا عديدة من نظمه، تؤكد لك سمات أسلوبه المشرق، وصنعته الجيدة.

ويقول الثعالبى(١) — مدللا على نظم السرى البديع — : «ثم قرأت فى كتاب تفسيرا بن جنى (٢) لشعر المتنبى بيتا واحدا أنشده السرى من قول المتنبى [من الطويل] :

سقاك وحيانا بك الله إنما على العيس نور والخدود كمائمه (٣)

وهو : [من المنسرح] (٤)

حيا بك الله عاشقيك فقد أصبحت ريحانة لمن عشقا

فكدت أقضى بأنى لم أسمع فى معنا. أظرف منه، ولا ألطف، ولا أعذب

---

(١) فى اليتيمة ٢/١٢٠

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى، كان إماما فى العربية، قرأ الأدب على أبى على الفارسى، وصحب المتنبى دهرا طويلا، توفى فى عام ٣٩٢ هـ — انظر ترجمته فى معجم الأدباء ١٢/٨١، ووفيات الأعيان ٣/٣١٢.

(٣) العيس : الجمال، الكمائم : أغلفة النوار، والنور : أزهار النباتات والأشجار.

(٤) ديوان السرى ٢/٥١٢

ولا أخف ، وطلبت القصيدتين (١) فعزتا وأعوزتا ، وعلمت أن الذى حصلت من شعره غيض من فيض مالم يقع إلى » .

وإذا كان الثعالبي يحكم له هذا الحكم فى بيت قد تأثر فيه بالمتنبي وأخذ معناه منه أخذا حسنا ، فمابالك بشعره الذى لم يأخذه من أحد .

ومما يؤكد شاعريته التى تفيض عذوبة ورقة شعره الذى أورده لك فى الصفحات التالية :

فمن ذلك شعره الذى يداعب به صديقا له ، بخفة روح ، وجمال تعبير ، وكان صديقه هذا قد أهدى إليه كأسا فسقط من يد السرى فانكسر ، فأراد السرى أن يطلب منه كأسا آخر ، بصورة فيها المرح ، والمزاح المحببين إلى النفس ، فقال مخاطبا الصديق [من المنسرح](٢) :

يامن لديه العفاف والورع	وسيمتاه العلاء والرفع
كأسك قد فرقت مفاصله	بين الندامى فليس يجتمع
كأنما الشمس بينهم سقطت	فجسمها فى أكفهم قطع
لو لم أكن واثقا بمشبهه	منك لكاد الفؤاد ينصدع
فجد به بدعة فعندى من	جودك أشياء كلها بدع

وقد تضمنت هذه القطعة الشعرية : استعارة مكنية لطيفة فى قوله « كأسك » حيث شبه الكأس بإنسان ثم حذف الإنسان ورمز له بشيء من لوازمه وهو « مفاصله » ، ويمكن أن نصرف النظر عن الاستعارة المكنية هذه ، ونجعل فى كلمة « مفاصله » استعارة تصريحية ، فنقول :

---

(١) أى : القصيدة التى استشهدمنها القاضى الجرجانى للاستعارة الحسنة ، والقصيدة التى منها البيت الأخير هنا .

(٢) انظر ديوانه ٣٧٠/٢ وتاريخ بغداد ١٩٤/٩

شبهت أجزاء الكأس المكسور بالمفاصل المعرقة ، بجامع التفريق فى كل ، ثم استعيرت المفاصل لأجـــزاء الكأس ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

وهناك التشبيه الجميل فى قوله « كأنما الشمس بينهم سقطف ، فجسمها فى آكفهم قطع » .

حيث شبه الكأس الذى تفرقت أجزاؤه بشمس قد سقطت بين الندامى فتكسرت ، فوزع قطعها فى أكفهم ، وهذا تشبيه رائع .

ومن شعره الذى يصدر عن طبع أرق من الهواء ، وأسلوب أعذب من الماء ما قاله فى وصف روضـــة ، ثم عرج فيه إلى الحديث عن الخمر والحب ، حيث يقول(١) :

وروضة بات طل الغيث ينسجها
حتى إذا نسجت أضحى يدبجها(٢)
إذا تنفس فيه ريح نرجسها ناغى جنى خزاماها بنفسجها(٣)
أقول فيها لساقينا وفى يده كأس كشعلة نار إذ يؤججها
لا تمزجنهـا بغير الريق منك وإن
تبخل بذاك فدمعى سوف يمزجها
أقل مابى من حبيك أن يدى إذا دنت من فؤادى كاد ينضجها

وهنا أيضا نرى الاستعارات الحسنة ، ومنها : « ينسجها » فقـد شبه ما يحدثه الغيث من نبت فى الروضة بالنسج ، ثم استعارة النسج لما يحدثه

(١) ديوانه ٢/٧٨٨ ومعجم الأدباء ١١/١٨٨

(٢) يدبجها : يزينها ، الطل : أضعف المطر . الغيث : المطر .

(٣) ناغى ، المناغاة : المغازلة ، والمرأة تناغى الصبى أى : تكلمه بما يعجبه ويسره . الخزامى : نبت .

الغيث ، واشتق من النسج « نسج » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ومنها : لفظ « ريح نرجسها » حيث شبه الريح بالإنسان ، وحذف الإنسان ورمز له بشيء من لوازمه وهو تنفس ، على سبيل الاستعارة المكنية ، ومثلها فى « بنفسجها » حيث جعل للبنفسج مناغاة ومداعبة ، تشبيها له بالإنسان .

ونرى مراعاة النظير(١) بصورة جيدة بين : النرجس والخزامى والبنفسج ، كما نرى التشبيه الرائع فى قوله : كأس كشعلة نار يؤججها .

والسرى الرفاء يشابه فى رقته ، وعذوبة أسلوبه ، وسلاسة تعبيره فى وصف الخمر شعراء الأندلس ، ولنقرأ معا القطعة التالية لأبى الحسن الأشبيلى(٢) فى وصف الخمر ، يقول :

ورب شعلة نار شفيت منها أوارى(٣)

أليس ذاك عجيباً يطفى الغليل بنار ؟

كأنما عصرت من شقائق الجلنار(٤)

---

(١) مراعاة النظير ويسمى أيضا التناسب والتوافق والائتلاف وهو : جمع أمروما يناسبه ويوافقه لا على سبيل التضاد .

(٢) هو الأديب أبو الحسن على بن حصن الأشبيلى ، من مشاهير شعراء المعتضد ، أحد من راش سهام الألفاظ ، بالسحر الحلال ، وشق كمائم المعانى عن أفتن من محاسن ربات الحجال ، بين طبع رقيق ، وعلم غزير — انظر ترجمته فى البغية ١٢٣٢ ، ١٥٢٣ ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٣/٢٢٦ ، ٤٢٩ للشيخ التلمسانى ، وبدائع البدائه ٣٦٧ لابن ظافر الأزدى ، والذخيرة فى محاسن أهل الجزيره لابن بسام مجلد أول قسم ثان ص ١٥٨

(٣) الأوار : النار .

(٤) الجلنار : زهر الرمان

إذا بدت لك فى قطـــعة من البلار
حسبتهـا شفقـا صب فى زجاج نهـار(١)

فالسرى الرفاء يشبهها وهى فى كأسها بشعلة نار ، وهنا يستعير لها الأشبيلى شعلة النار ، فالشاعران متماثلان فى هذا التشبيه ، ويزيد الأشبيلى فيشبهها فى لونها بعصير شقائق الجنار ، كما يشبهها وهى فى كأسها البللورى بشفق قد صب فى زجاج فى وضح النهار ، وهى تشبيهات فى غاية الرقة والعذوبة والشفافية .

ويأتى الأشبيلى فى قطعة أخرى فيشبه الخمر وهى فى الكأس بالكواكب حين تأتلق فى السماء فيقول(٢) :

قم ياغلام فاسقنيها وادرب واشرب عتبت عليك إن لم تشرب
من قهوة صفراء ذات أسرة
فى الكأس تأتلق ائتلاق الكواكب

هذا : ومما يضيف لشاعرية السرى فضلا ولطفا تميزه بحسن الخروج والتخلص(٣) من غرض إلى آخرى من ذلك قوله فى الوزير المهلبى [من الكامل](٤) :

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة المجلد الأول — القسم الأول ص ١٦١ .

(٢) وردت فى المغرب ١/٢٤٦ ، ورايات المبرزين ٤٠

(٣) حسن الخروج والتخلص هو : الخروج مما ابتدىء وافتتح الكلام به إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما . . والتخلص قليل فى كلام المتقدمين ، وأكثرا انتقالاتهم من قبيل الاقتضاب ، أما المتأخرون فقد لهجوا به لما فيه من الحسن والدلالة على براعة الشاعر — المطول ٤٨٠ —

(٤) ديوان السرى ٢/٥٦١

عصر مزجت شمائلي بشموله وظلاله ممزوجة بشماله
حتى حسبت الورد من أشجاره
يجنى أو الريحان من آصاله
وكأنني لما ارتديت ظلاله جاد الوزير المرتدى بظلاله

فحسن الخروج فى قوله «جاء الوزير المرتدى بظلاله» وهو انتقال حسن ؛ حيث لاءم بين ما ابتدأ به وما انتقل إليه، دون أن يشعر السامع بالانتقال طفرة دون تمهيد.

وقال من قصيدة أخرى(١) يمدح سيف الدولة [من الكامل] :

أكنى عن البلد البعيد بغيره وأرد عنه عنان قلب مائل
وأود لو فعل الحيا بسهوله
وحزونه فعل الأمير بآمل

فقد أحسن التخلص من الغزل إلى المدح فى البيت الثانى، وربط بين المعنيين دون أن يثقل ذلك على السامع.

ومن أخرى(٢) يمدح سيف الدولة [من الكامل] :

وركائب يخرجن من غلس الدجى
مثل السهام مرقن منه مروقا
والفجر مصقول الرداء كأنه
جلباب خود أشربته خلوقا
أغمامة بالشام شمن بروقها أم شمن من شيم الأمير بروقا

---

(١) ديوان السرى ٥٣٢/٢
(٢) ديوان السرى ٤٨٢/٢

فقد أحسن التخلص من الوصف إلى المدح ، بتحيل لطيف ، وبكلام متلائم الطرفين ، مترابط .

وقال من قصيدة(١) أخرى يمدح فيها سيف الدولة [من المتقارب] :

وبكر إذا جنبتها الجنوب حسبت العشار تؤم العشارا
ترى البرق يبسم سراً بها إذا انتحب الرعد فيها جهارا
إذا ماتنمر وسميها تعصفر بارقها فاستطارا(٢)
يعارضها فى الهواء النسيم
فينثر فى الأرض دراً صغارا(٣)
فطوراً يشق جيوب الحيا وطوراً يسح الدموع الغزارا
كأن الأمير أعار الربا شمائله فاشتملن المعارا

فقد تخلص من الوصف إلى المدح للأمير ، وكان المعنيان متلاءمين منسجمين كأنهما قد أفرغا فى قالب واحد .

ومما يجدر ذكره أن الانتقال مما يبتدأ به الكلام إلى مالا يلائمه يسمى بالاقتضاب ، وهو :

الاقتطاع والارتجال ، وهذا مذهب العرب فى الجاهلية ، ومن يليهم من المخضرمين ، أما المتأخرون فقد أحسنوا التخلص ، ولم يستعملوا الاقتضاب(٤) .

---

(١) ديوانه ٢/١٨٥ ، واليتيمة ٢/١٦٢
(٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، استطارا : انتشر .
(٣) يقصد بالدر هنا : البرد وهو حب الغمام .
(٤) أنظر المطول ٤٨٠

« ولا يشترط فى « حسن التخلص » أن يتعين المتخلص منه ، بل يجرى ذلك فى أى معنى كان ، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أوغزل أو فخر أو وصف روض أو وصف طلل بال أوربع خال أو معنى من المعانى يؤدى إلى مدح أو هجو أو وصف فى حرب أو غير ذلك(١) » .

أخلاقه :

والمراجع التى تحدثت عن حياة السرى لم تذكر شيئاً عن أخلاقه ، ولكن شعره ينبئنا عن ذلك ،فالقارىء حينما يقرأ أوصافه للخمر يتأكد له أنه كان مدمنا لها ، لاهيا فى مجلس شرابها ، بل يدعو غيره إلى اللعب والشراب ، مقتدياً فى ذلك بأبى نواس ، ولنسمعه يقول(٢) .

ألاعد لى بباطية وكاس ورع همى بإبريق وطاس
وأذكرنى بشعر أبى نواس على روض كشعرابى نواس

ويقول(٣) :

قم فانتصف من صروف الدهر والنوب
وأجمع بكأسك شمل اللهو والطرب
فاخلع عذارك واشرب قهوة مزجت
بقهـــوة الفلج المعشوق والشنب
جريت فى حلبة الأهواء مجتهداً
وكيف أقصر والأيام فى طلبى
توج بكاسك قبل الحادثات يدى
فالكأس تاج يدى المثرى من الأدب

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموى ١٤٩
(٢) ديوانه ٣٨/١
(٣) ديوانه ٣٩/١

بل ويذكر أنه كان يبغض أهل الصلاح يقول(١) :

إنى منحت ذوى الصلاح من الورى
بغضا فلست إليهم مرتاحا

وقد جره شرب الخمر وحب اللعب واللهو إلى مغازلة النساء والعبث معهن ، فهو يقول(٢) :

سكرت بقطربل ليلة صبوت فغازلت غزلانها
وأى ليالى الهوى أحسنت إلى فأنكرت إحسانها

ومن هنا — كما يقول دكتور حبيب الحسنى(٣) — عصى السرى تعاليم الدين الحنيف وأوامره ، فنفر من المساجد وصد عنها ، وقصد الحانات وأماكن اللهو والقصف ، وأكثر من زيارته والتجائه إلى الدير ، وتمسكه بالإنجيل ، لأنه أباح شرب الخمر ، فهو يقول (من الوافر)(٤) :

ليالى كان لى فى كل يوم إلى الحانات حج واعتمار
فعن ذكر القيامة بى صدود وعن ساح المساجد بى نفار

ويقول(٥) : (من المتقارب) :

ودير شغفت بغزلانه فكدت أقبل صلبانها

---

(١) ديوانه ١/٤٠

(٢) ديوانه ١/٤٢

(٣) فى تحقيق ديوان السرى الرفاء ١/٤٢

(٤) ديوانه ٢/١٧٤

(٥) ديوانه ٢/٧٣٢

ويقول(1) (من الطويل) :

ولابسة فى كأسها ثوب آمن جلاها علينا الماء فى لون خائف
تمسكت بالإنجيل لما أباحها
وخالفت فيها نص ما فى المصاحف

عقيدة السرى الرفاء :

وأما عن عقيدة السرى الرفاء : فقد أشار ابن النديم(2) أثناء حديثه عن الرمانى(3) : أن السرى كان متشيعا لآل البيت ، ويذكر أن السرى كان جاراً للرمانى بسوق العطش ببغداد ، وكان كثيراً ما يجتاز بالرمانى وهو جالس على باب داره ، فيستجلسه ويحادثه ، ويستدعيه إلى أن يقول بالاعتزال ، وكان السرى يتشيع ، فلما طال ذلك عليه أنشد أبياتا يذكر تمسكه بالنبى ﷺ وآله ، وبالإمام على كرم الله وجهه ، وبالقرآن الكريم(4) .

(1) ديوانه ٣٩٩/٢

(2) فى الفهرست ص ٦

(3) هو أبو الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى المعتزلى م ٣٨٦ هـ

(4) وأنظر فى ذلك ديوانه ٢٦٨/٢ ، ٣٧٦/٢

المبحث الثاني

الفنون الشعرية عند السرى

١ — فن المدح

تناول السرى الرفاء أغراضا شعرية ، منها فن المدح .

والمدح فن شعرى تغنى به العرب فى الجاهلية وفى الإسلام فى عصور مختلفة ، « وقد كان الكرم والشجاعة هما الفضيلتين العظيمتين فى العصر الجاهلى ، فمدح بهما الشعراء كثيراً ، وافتخروا بهما ، وعيروا بضدهما من بخل وجبن »(١) .

وكانت العرب لاتتكسب بالشعر ، « وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها ، كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بنى تميم رهط المعلى :

أقر حشا امرىء القيس بن حجر
بنو تميم مصابيح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه ، وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء ، لقتله بنى أبيه ، ... حتى نشأ النابغة الذبيانى، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الإمتناع منه بمن حوله من

---

(١) الأساس فى النقد والبلاغة ١٤٥/٢

عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيما ، حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة ، وأوانيه من عطاء الملوك »(١) .

وتكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر تكسباً يسيراً مع هرم بن سنان ، ثم جاء الأعشى وجعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان ، « ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر، وانحطاط الهمة فيه والإلحاف ، حتى مقت وذل أهله ، وهلم جرا إلى أن حرم السائل وعدم المسئول »(٢) .

وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر ، وقلة التعرض به لما فى أيدى الناس(٣) .

ومضى العصر الجاهلى ، ثم جاء العصر الأموى الذى جنحت فيه المدائح إلى المبالغة ، وجهر بعض الشعراء بطلب العطاء ، كقول جرير لعبد الملك ابن مروان :

أغثنى يافداك أبى وأمى
بسيب منك إنك ذوارتياح(٤)
فإنى قد رأيت على حقا
زيارتى الخليفة وامتداحى
سأشكر إن رددت على ريشى
وأنبت القوادم فى جناحى(٥)

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ١/٨٠
(٢) العمدة ١/٨١
(٣) المصدر السابق ١/٨٢
(٤) سيب : عطاء ، أرتياح : كرم وأريحية .
(٥) أنظر ديوان جرير ص ١٥٠ دار صادر بيروت .

فلما جاء العصر العباسى طغى المــــدح على أبواب الشعر ، واصطبغ بالمبالغات التى لا يقبل كثير منها ، كقول أبى نواس فى مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق(١)

وجاء شاعرنا السرى الرفاء - فرأى الشعراء يغرقون فى المدح ، الذى أصبح باباً واسعاً من أبواب الرزق ، ودعته الحاجة ، وألجأه الفقر إلى أن يسير فى ركابهم ، وينهل من منهلهم ، ليسد حاجته ، ويخفى فقره ، فخرج من حلب بعد أن ضاقت عليه سبل العيش ، واتجه إلى سيف الدولة « واستكثر من المدح ، فلمع سعده بعد الأفول ، وبعد صيته بعد خمول ، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بنى حمدان ورؤساء الشام والعراق ، ولما توفى سيف الدولة ورد السرى بغداد ، ومدح المهلبى الوزير وغيره من الصدور ، فارتفق بهم ، وارتزق معهم ، وسافر كلامه إلى خراسان وسائر البلدان »(٢) .

ولما كان العصر العباسى قد كثر فيه التأليف ، وظهرت من خلال الكتب المؤلفة مقاييس للنقد ، وموازين توزن بها فنون الشعر - لما كان الأمر كذلك - كان لزاماً على السرى أن يلتزم بتلك المقاييس النقدية ، ويسير حسبما تقتضى هذه الموازين ، وعندما نتفحص أغراض شعر السرى نجدها فعلا قد جاءت موافقة للمقاييس والموازين التى قررها النقاد أمثال قدامة بن جعفر(٣) (م ٣٣٧ هـ) .

---

(١) انظر الأساس فى النقد والبلاغة ١٤٧/٢

(٢) اليتيمة ١١٩/٢

(٣) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب صاحب كتاب نقد الشعر ، كان نصرانياً وأسلم على يد المكتفى بالله ، وكان أحد الفلاسفة الفضلاء ، وممن يشار إليه فى علم المنطق - انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ١٨٨ ، ومروج الذهب ١٥/١ ، ومعجم الأدباء ١٢/١٧

وأبى هلال العسكرى[1] (م ٣٩٥ هـ) والآمدى[2] (م ٣٧١ هـ) .

ولنأخذ نماذج من مدح السرى لنتبين مدى قدرته على إيراد ما يتطلبه هذا الفن من مقاييس وموازين : فمن مدائحه لسيف الدولة[3] :

أعزمتك الشهاب أم النهار ... وراحتك السحاب أم البحار[4]

خلقت منية ومنى وتضحى ... تمور بك البسيطة أو تمار[5]

تحلى الدين أو تحمى حماه ... فأنت عليه سور أو سوار

وقد تضمنت هذه الأبيات ألواناً بلاغية رائعة: منها:التشبيهات الحسية فى البيت الأول حيث شبه العزمة بالشهاب ، والنهار ، وشبه راحته بالسحاب، والبحار، والمشبه به فى كل حسى له تأثيره فى قوة المعنى وتحققه .

أما فى البيت الثانى : فقد جاء تشبيه جمع[6] ، حيث شبه الممدوح بالمنية

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكرى، أحد نقاد القرن الرابع الهجرى ، له مؤلفات عديدة منها : الصناعتين - انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٢٥٨/٨ ، وفيات الأعيان ٨٤/٢ .

(٢) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى صاحب كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى - أنظر ترجمته فى إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٨٥/١ ، ومعجم الأدباء ٧٥/٨ .

(٣) ديوان السرى ٢٢١/٢ .

(٤) العزمة : الثبات والصبر .

(٥) مار الشىء : تحرك كثيراً وبسرعة من جهة إلى أخرى ، ومار التراب : ثار .

(٦) وتشبيه الجمع هو أن يتعـــدد المشبه به دون المشبه — بغية الإيضاح ٥٦/٣ .

فى الضرر أو فى اغتيال النفوس والقضاء عليها ، وهذا بالنسبة للأعداء ، وشبهه بالمنى فيما يترتب على كل من راحة النفس وسكون للضمير ، وهذا بالنسبة للأولياء ، وهذا التشبيه وإن كان تشبيه محسوس بمعقول إلا أنه لطيف .

وبين « منية » و « منى » جناس أو مايسميه البلاغيون « مايشبه الاشتقاق » وهو مما يلحق بالجناس(١)، وهو هنا مقبول خال من التعسف .

وفى البيت الثالث : نجد التشبيه الجيد ، حيث شبه الممدوح بالسور فى فى مطلق الحفظ والإحاطة ، كما شبهه بالسوار فيما يترتب على كل من حلى وزينة ، فكما أن السوار يزين المعصم ، فكذلك سيف الدولة يزين الدين ، ويحيطه برعايته .

وفى هذا البيت لف ونشر غير مرتب(٢) ؛ حيث ذكر تحلية الدين ، وحماية حماه ، ثم أعاد لكل مايناسبه على غير ترتيب ، فالسور يناسب « تحمى حماه » والسوار يناسب « تحلى الدين » وهذا دون تعمل من الشاعر .

ومن هذه القصيدة قوله(٣) :

حضرنا والملوك له قيام تغض نواظر فيها انكسار

---

(١) وهو : أن يجمع اللفظين مشابهة تشبه الاشتقاق وليس باشتقاق ، وذلك بأن يوجد فى كل من اللفظين جميع ما وجد فى الآخر من الحروف أو أكثر لكن لا يرجعان إلى أصل واحد فى الاشتقاق ، كقوله تعالى : « قال إنى لكم من القالين » ، فإن قال من القول ، والقالين من القلى أى الكره والبغض — انظر المطول ٤٤٩ .

(٢) واللف والنشر هو : ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلا إلى ما يناسبه انظر بغية الإيضاح ٣٤/٤ .

(٣) ديوانه ٢٢٢/٢ .

وزرنا منه ليث الغاب طلقاً ولم نر قبـله ليثاً يزار
فعشت مخيراً لك فى الأمانى وكان على العدو لك الخيار
وضيفك للحيا المنهل ضيف وجارك للربيع الطلق جار

وتضمنت هذه الأبيات أيضاً ألواناً أخرى من البلاغة ؛ فقد جاء التجريد[1] فى البيت الثانى) وهو تجريد منبيء عن التشبيه ، حيث انتزع من سيف الدولة ليثاً ، ليدل على صفة الشجاعة فى المنتزع منه ، وهذا على سبيل المبالغة فى الصفة .

وفى البيت الرابع استعارتان لطيفتان ، إحداهما فى قوله : « للحيا المنهل » ؛ حيث شبه سيف الدولة بالحيا وهو المطر ، ثم حذف المشبه ؛ وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ، وثانيهما : فى قوله : « للربيع الطلق » حيث شبهه بالربيع ، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به .

كذلك نرى صبغاً بديعيـاً فى البيت الرابع يسمى « رد العجز على الصدر »[2] ، حيث كرر لفظ « جار » فجاء أولا فى صدر المصراع الثانى ، وثانياً فى آخر البيت .

---

(١) التجريد هو : انتزاع أمر من أمر آخر لبيان صفة على سبيل المبالغة ، وهو أنواع : منها التجريد المنبيء عن التشبيه وهو كل ما تكون باء التجريد فيه داخلة على المنتزع منه ، وتفيد فيه معنى المصاحبة ـ أنظر بغية الإيضاح ٤/٤٤ .

(٢) ورد العجز على الصدر : هو فى النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما فى أول الفقرة والآخر فى آخرها ، وفى الشعر أن يكون أحد اللفظين المذكورين فى آخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صـدر الثانى ـ بغية الإيضاح ٤/٨٧ .

وإذا تأملنا النموذجين السابقين وجدنا أن السرى الرفاء قد مدح سيف الدولة بصفات تعارف الشعراء على أن يمدحوا بها ، وأقرها النقاد ، مدحه بالجود والعطاء حين قال: «وراحتك السحاب أم البحار» ومدحه بالشجاعة فى قوله :

منيـــة ومنى وتضحى تمور لك البسيطة أو تمار

ومدحه بالعزة والمنعة وحماية الدين فى قوله :

تحلى الدين أو تحمى حماه فأنت عليه سور أو سوار

كما مدحه بالسيادة فى قوله :

حضرنا والملوك ... الخ

كذلك كرر مدحه بالشجاعة فشبهه بالليث ، ومدحه بالشرف وقوة الشكيمة بقوله « وكان على العدو ولك الخيار وكرر مدحه بالكرم فى قوله: « وضيفك للحيا المنهل ضيف . . البيت .

ونلاحظ أن أسلوبه هنا يتميز بجزالة الألفاظ وقوتها. ورصانة التعبير وتماسكه ، لأنه تعبير عن شجاعة وإباء وقوة ، وإعجاب بجود وكرم ، وتصوير لسيادة وعزة ، وهذا يتطلب أسلوباً له صفات الجزالة والقوة والرصانة .

كما نلاحظ : بأن الشاعر قد صور معانيه تصويراً خيالياً ، فاستعان بالتشبيه ، « والتشبيه خيال ، لأنه قائم على عقد المقارنة بين شيئين فى وصف مشترك بينهما ، إن المشبه والمشبه به غير متصلين فى الواقع ، وليس من اللازم أن يذكر أحدهما بالآخر ، وإنما أدرك الشاعر المشبه وحده ، فانفعل به ، وأراد التعبير عن انفعاله فألحقه بالمشبه به ، وهذا عمل من أعمال الخيال »(١) .

(١) أنظر الأساس فى النقد والبلاغة ٩٤/٢

ورأينا : أن المعانى هنا قد صدرت عن تجربة وانفعال صادقين ، وأنها امتزجت بروح الشاعر وأحاسيسه . « والمعانى الشعرية تمتاز بأنها ممزوجة بنفس الشاعر ، وتعبر عن وجدانه وانفعالاته: وأنها ليست صورة مطابقة للواقع تماماً ، بل تصوير للواقع أو نواح منه ملونة بأحاسيس الشاعر»(١).

والمعانى تلون بأحاسيس الشاعر لقصد « التأثير فى عواطف المخاطبين ، وإثارة إعجابهم ، وإمتاعهم بما فى الشعر من جمال وافتتان، واللغة لا تستطيع النهوض بذلك إذا استعملت دائماً فى معانيها الأصلية الوضعية ؛ لأنها حينئذ تعبر عن إدراك عقلى خالص ، وتفهم بإدراك عقلى خالص »(٢) .

ولذلك كان هناك فرق بين الأسلوب الأدبى الذى يعتمد على العاطفة والخيال ، ويصدر عن تجربة وانفعال ، وبين الأسلوب العلمى الذى يعتمد على الحقائق العلمية ، ويخلو من العاطفة والخيال والتأثير والانفعال .

وقد رأينا أن التشخيص فى النموذجين السابقين واضح ، والتشخيص هو : « تصوير المعنى المجرد بشىء محسوس ، أو تصوير الجماد أو النبات أو الحيوان بأنه إنسان يسمع ويجيب »(٣) .

وهذا واضح فى التشبيهات الحسية المذكورة التى أشرنا إليها فى النموذج السابق .

وإليك نموذجاً آخر من مدح السرى لسيف الدولة :

يقول(٤) [من البسيط] :

لما تراءى لك الجمع الذى نزحت أقطاره ونأت بعداً جوانبه

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ٢/٩٤ .
(٣) الأساس فى النقد والبلاغة ٢/٩٦ .
(٤) ديوانه ١/٣٢٠ .

تركتهم بين مصبوغ ترائبه   من الدماء ومخضوب ذوائبه
فحائر وشهاب الرمح لاحقه   وهارب وذباب السيف طالبه
يهوى إليه بمثل النجم طاعنه   وينتحيه بمثل البرق ضاربه
يكسوه من دمه ثوبا ويسلبه   ثيابه فهو كاسيه وسالبه

فهذا نموذج آخر رائع من نماذج مدح السرى ، تلونت بأحاسيسه ، وامتزجت بنفسه ، وعبرت عن وجدانه ، فجاءت الصور الخيالية الخلابة من مثل قوله : « وشهاب الرمح لاحقه » ، وهو تشبيه بليغ ، أضيف فيه المشبه به إلى المشبه ، ومثل : يهوى إليه بمثل النجم طاعنه ، وينتحيه بمثل البرق ضاربه ، حيث شبه سرعة ضرب السيف بسرعة البرق ، ووجه الشبه السرعة فى كل .

والاستعارة اللطيفة فى قوله « يكسوه » والمراد « يغطيه » ، فقد شبه تغطية الدماء بالكساء . ثم استعار الكساء للتغطية ، واشتق من الكساء يكسو بمعنى يغطى على سبيل الاستعارة التبعية .

وهنا نجد أيضاً مراعاة النظير الذى جاء بصورة مقبولة ، وذلك بين الرمح والسيف ، وكذلك بين النجم والبرق ، كذلك نجد المطابقة الحسنة بين كاسيه وسالبه .

وقد تضمنت هذه الأبيات المدح بالشجاعة ، فهى تصف ملحمة حربية حدثت بين سيف الدولة وبين أعدائه انتهت بعواقب بطولية ، ونتائج مشرفة له ولجنده .

وأسلوب الشعر هنا ملائم لغرض المدح ، من حيث الألفاظ الجزلة ، والتصوير الحسى ، وانسجام العبارات واتساقها ، وموافقتها للمقام الذى

قيلت فيه ، والسبب الذى أنشئت من أجله ، فى وضوح ونسق عربى سليم .

وقال يمدح الأمير أبا الهيجاء حرب بن سعيـــد بن حمدان(١) [من الكامل] :

كالغيث يحيي إن همى والسيل ير
دى إن طما والدهر يصمى إن رمى(٢)

شتى الخلال يروح إما سالبا
نعم العدا قسرا وإما منعما(٣)

مثل الشهاب أصاب فجا معشبا بحريقه وأضاء فجا مظلما(٤)

أو كالغمام الجون إن بعث الحيا
أحيا وإن بعث الصواعق أضرما(٥)

---

(١) ديوان السرى ٢/ ٦٥٧

(٢) همى: سال ، يردى : يهلك ، طما الماء: ارتفع وملأ النهر ، يصمى من أصميت الصيد إذا رميته فقتلته ، والمعنى : والدهر يقتل إذا رمى بسهمه على سبيل الاستعارة .

(٣) يروح : الرواح ضد الصباح وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل ، ويروح ضد يغدو ، قسرا : قهرا .

(٤) الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، معشبا : كثير العشب ، والعشب الكلأ الرطب .

(٥) الجون : الأبيض وأيضا الأسود ، فهو من الأضداد وفى الديوان « الجود » الحيا : المطر ، أضرم : أشعل النار .

أو كالحسام إذا تبسم متنه
عبس الردى فى حده فتجهما(١)
كلف بدر الحمد يبرم سلكه
حتى يرى عقداً عليه منظما(٢)
ويلم من شعث العلا بشمائل
أحلى من اللعس الممنع واللمى(٣)

ماأروع هذا الأسلوب ، الذى اختيرت كلماته ، ذات الجرس القوى والإيقاع ذى الرنين الحلو وماأدق تعبيره الذى تنبعث من خلاله قوة التأثير ، وتظهر من حواشيه عاطفة جياشة ، وانفعال حاد ، وإحساس شديد بما تضمنته هذه القطعة الشعرية ، وماأبدع معانيه التى توافقت مع كلماته الجزلة وتلاءمت مع تعبيراته الرصينة ، التى تتناسب وفن المدح ، مع الأفكار السهلة القريبة المنال ، وماأجمل الشكل العام من وزن وقافية يبعثان بموسيقى الشعر ، ويؤثران التأثير العميق فيمن يسمع و يقرأ .

وأما خياله فواضح وقريب ، بعيداً عن التداخل ، والخيال هنا قد لون عاطفته ورسم أحاسيسه ، وصور وجدانه حيال الباعث الذى أنطقه بالشعر وهذا الباعث هو ماأحس به الشاعر من كرم وجود ، وماقترن بذلك من شجاعة وقوة ، وشمائل حميدة

---

(١) متنه : ظهره ، عبس : تجهم ، والتجهم : كلح الوجه ، الردى : الهلاك .

(٢) كلف : محب ، يبرم : يحكم .

(٣) الشعث ـ بفتحتين ـ انتشار الأمر ، يقال : لم الله شعثك أى جمع أمرك المنتشر ، الشمائل : الأخلاق ، اللعس ـ بفتحتين ـ لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، اللمى : سمرة فى الشفة تستحسن .

وتميز الشاعر بخيال خصب ، حيث غلف معانيه بتشبيهات عديدة . شبه ممدوحه بالغيث، فالغيث إذا كان يحيي موات الأرض إذا سال فالممدوح كذلك يحيي نفوس أوليائه : كذلك شبهه بالسيل في ضرره وهلاكه وذلك بالنسبة لأعدائه .

وما أجمل اللف والنشر في البيتين الأولين ، مردفا ذلك بتشبيه الممدوح بالشهب الذي يضر بحريقه ، أو ينفع بضيائه، فالممدوح يضر ويهلك أعداءه وينفع أولياءه ، كذلك شبهه بالغمام الذي يصدر عنه المطر فيحيي وينبت ، وحينما يأتي بالصواعق يشعل النار ويدمر .

ثم شبهه بالحسام ، الذي يبرق متنه ولكن في حده الموت الزؤام ، وماأروع الاستعارة في قوله « يحيي » أي ينبت ، وفي قوله « والدهر يصمي إن رمي » ، حيث شبه الدهر بإنسان ثم حذفه ورمز له بشيء من لوازمه وهو يصمي ، ورمي ، على سبيل الاستعارة المكنية ، وماألطف الاستعارة في قوله « تبسم » حيث شبه الحسام بالإنسان ،ثم حذفه ورمز له بشيء من لوازمه وهو « تبسم » .

وماأجمل الطباق في البيت الأول بين « يحيي » و « يردى » مع مراعاة النظير بين الغيث والسيل ، وكذلك الطباق في البيت الثاني بين « سالبا » و « منعما » ، والطباق في الثالث بين « أضاء » و « مظلما » ، والطباق في البيت الخامس بين « تبسم » و « تجهم » .

وهنا نلاحظ أن الشاعر قد أورد في شعره تشبيهات حسية كثيرة ،وهذا من خصائص شعره ، وتشبيهاته هذه تعمق المعنى ، وتؤثر في النفس كما أورد الطباق بصورة ظاهرة ، وهذا من خصائصه الفنية أيضا ، كذلك رأيناه يستعين بمظاهر الطبيعة ، من غيث وسيل، وشهاب ،وغمام ،وصواعق وبدر ، ليبرز صور خياله .

وبهذه الصور الخيالية يكون الشاعر قد وفق – إلى حد كبير – فيما يتطلبه الشعر من سمات، أهمها :

رسم الواقع ملونا بأحاسيس الشاعر ، ممزوجا بمشاعره ، رابطا بين مظاهر الطبيعة والصفات التى يريد إبرازها .

« ولا شك أن تلوين المعانى بإحساسات الشاعر وعاطفته ووجدانه يكسبها جدة وطرافة ، لأنه يبعد عنها جفاف العلم ، ويبعدها عن محاكاة الواقع كما هو ثم إنه يكفل لهذه المعانى الشيوع والعموم ، لأنها ليست تعبيرا عن إدراك الشاعر وحده ، بل هو تعبير عن إدراكه وإدراك كثير من الناس ، هى تصوير لنفسه ونفوس الآخرين، وهذا هو السبب فى تقبلنا كثيرا من الشعر القديم والحديث بالرضا ، لأنه يترجم عن قائله من ناحية ، ويترجم عنا من ناحية ثانية ، أى أنه تعبير عن النفس الإنسانية »(١)

ولا ينبغى أن يغفل الشاعر الحقائق فى الشعر ، فالأفكار الصائبة والحقائق الثابتة التى يعبر عنها الشعراء لها قيمتها ومكانتها ، غاية ما فى الأمر أن الشاعر يلونها بأحاسيسه ، ويصورها بخياله ، حتى لا تكون علمية خالصة .

والشعر الذى يكون الهدف منه سرد الحقائق العلمية ، والذى يعتمد على العقل الخالص ، أو الأمور الفلسفية يكون خاليا من العاطفة والانفعال غير ملون بأحاسيس الشاعر ، ولا ممزوجا بوجدانه، ولذا يكون جافا ، يبعث على السأم، ويخلو من المتعة الحسية، والأولى أن يسمى نظما لا شعرا ، لخلوه من العاطفة والخيال وهما من أهم مقومات الشعر ، وأمثال ذلك النظم : ألفية

---

(١) الأساس فى النقد والبلاغة ٢ / ٨٧

ابن مالك فى النحو ، والسمرقندية لأبى القاسم بن أبى بكر الليثى السمرقندى فى أنواع المجاز ، ومنظومة الشيخ منصور ابن ناصر الدين الطبلاوى فى أنواع المجاز أيضا .

قال ابن رشيق[١] (م ٤٥٦ هـ) : « . . والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يجعلا نصب العين ، فيكونا متكئا واستراحة ، وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس ، وحرك الطباع ، فهـــذا هو باب الشعر الذى وضع له ، وبنى عليه لاما سواه »[٢] .

وإذا أمعنا النظر فى نماذج المدح السابقة للسرى ، وجدنا أن سمات شعره تتوافق مع مقاييس هذا الفن ، حيث قد حشد كثيرا من أنواع الخيال ، وخاصة التشبيهات الحسية ، الذى انتزعها من مظاهر الطبيعة ، ومشاهدها الحية ، وهذه كلها تنبىء عن عاطفة قوية صادرة عن تجربة صادقة .

والسرى فى خياله وجمال ألفاظه ، وقرب معانيه فى فن المدح يشبهه إلى حد كبير بعض شعراء الأندلس ، بل ويشبهونه أيضا فيما تناولوه من صفات المدح ، فهاهوذا ابن اللبانة[٣]

---

(١) هو أبو الحسن بن رشيق القيروانى صاحب كتاب العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ وفيات الأعيان ١/٣٦٦

(٢) العمدة ١ / ١٢٨ .

(٣) هو أبو بكر بن اللبانة المعروف بالدانى كان شاعرا من شعراء أشبيلية ، ومدح بنى عباد ومنهم المعتمد بن المعتضد ، وظل مع المعتمد إلى أن خلع ثم ذهب إلى ميورقة عام ٤٨٩ ومدح ملكها مبشرين بن سليمان ، توفى ٤٨٩ أو ٤٩٠ على ما بدا من نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤ / ٢٥٩ تأليف الشيخ أحمد التلمسانى .

يمدح المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية(١) :

يغيثك فى محل يعينك فى ردى
يروعك فى ورع ، يروقك فى برد(٢)

جمال وإجمال وسبق وصولة
كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد(٣)

بمجهته شاد العلا ثم زادها
بناء بأبناء جحاجحة لد(٤)

بأربعة مثل الطباع تركبوا
لتعديل ذكر المجد والشرف العد(٥)

---

(١) هو محمد بن عباد ، تولى الأمر بعد أبيه المعروف بالمعتضد ، وكان محمد بن عباد مع اشتغاله بالحرب محبا للأدب ، آخذا منه بسبب ، ضاربا فى العلم بسهم ، وله شعر رائع ، توفى سنة ٤٨٨هـ — أنظر أخباره فى كتاب : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثانى من الجزء الأول ص ٤١

(٢) المحل : بفتح فسكون : الجدب ، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ ، ردى — بفتحتين — : من ردى — بكسر الدال — بمعنى هلك ، يروعك : من راعه : أفزعه ، أو من راعه الشىء : أعجبه ، تروقك : يعجبك ، البرد — بضم فسكون — الثياب

(٣) إجمال : معاملة بالجميل ، صولة : وثبة وفيها معنى الشجاعة والقوة ، المزن : جمع مزنة : وهى السحابة البيضاء الممطرة .

(٤) يقصد أبناءه الأربعة وهم : المأمون ، والراضى ، والرشيد عبيد الله ، والمؤتمن ، ومعنى لد : شديدى الخصومة جحاجحة : أسياد

(٥) أنظر نفح الطيب ٢٥٦/٤

وابن المبانة هنا يتناول المدح بصفات نفسية ، ويضيف إليها صفات جسمية هى الجمال الذى يشبه الضحى ، وقد أورد تشبيهات حسية ، ولكنها ليست فى روعة تشبيهات السرى الرفاء ، ولا فى قوة تأثيرها ، ولم يكن فيها من البديع مثل ما فى مدائح السرى .

والسرى يشبه — إلى حد كبير — البحترى فى فن المدح ، بل ونجده يستخدم فى بعض قصائد مدحه الوزن والقافية والروى كما هى عند البحترى تماما ، ويغلب على الظن أن السرى متأثر بالبحترى تأثرا ظهر أيضاً فى موسيقاه ، وأسلوبه وتعبيره ، وخفة ألفاظه ورقتها ، وعذوبتها وسلاستها وسهولتها، وإن كان السرى يعد أكثر صفاء ورقة فى ألفاظه من البحترى، وذلك راجع لاختلاف العصر الذى عاش فيه كل منهما ، وكذلك نقطة أخرى يختلف فيها السرى عن البحترى ، وهى إستعماله الصنعة الفنية، التى تأتى ألوانها كثيرة متداخلة ، تزيد أحيانا على ما عند البحترى ، ولاسيما الجناس والطباق .

وقد تجد أسلوبا جديداً لدى السرى ، وكذلك تجد معنى طريفا حسنا لم يسبقه إليه أحد ، ومعنى طريفا مليحا ، ومعنى بارعا رائعا معجبا به قد كرره فى ديوانه(١) .

وسأورد نموذجا من مدح البحترى ، يليه نموذج متشابه من مدح السرى ، لنرى شدة التشابه بينهما فى الخصائص التى ذكرتها :

قال البحترى من قصيدة فى مدح المتوكل(٢) :

لى حبيب قد لج فى الهجر جداً   وأعاد الصدود منه وأبدى

---

(١) أنظر رأى الدكتور / حبيب الحسينى فى تحقيقه لديوان السرى ١٧٨/١ منشورات وزارة الثقافة والأعلام — العراق .

(٢) ديوان البحترى ٢٠/١ المطبعة الأدبية

ذو فنون يريك فى كل يوم خلقا من جفائه مستجدا
يتأبى منعا وينعم إسعا فا ويدنو وصلا ويبعد صدا
مربى خاليا فأطمع فى الوصل وعرضت بالسلام فردا
وثنى خده إلى على خوف فقبلت جلنارا وورد

وقال السرى من قصيدة يمدح بها الأمير أبا الهيجاء حرب بن سعيد ابن حمدان :

رد دمعى بسافح الدمع يندى حين حييته فأحسن ردا
سمحت لى به السحوف فما حا د عن العين والركائب تحدى
قمر كلما منحناه لحظا منح اللحظ جلنارا وورد
هو كالريم ما تلفت جيدا وهو كالغصن ما تأودقدا
أنا إن راح أو غدا لفراق فى مراح من الحمام ومغدى

وإذا أردنا أن نطبق على مدح السرى ما قرره النقاد من مقاييس فى فن المدح نجده قد أصاب، فهو قد مدح بالصفات النفسية كالشجاعة والجود، والشرف وقوة الشكيمة وما أشبه ذلك ، كما مدح بصفات جسمية قررها أكثر النقاد ، فمن مدحه بالصفات الجسمية قوله فى مدح أبى الهيجاء حرب ابن سعيد :

مثل الشهاب أصاب فجا معشبا بحريقه وأضاء فجا مظلما
أو كالحسام إذا تبسم متنه
عبس الردى فى حده فتجهما(١)

---

(١) ديوان السرى ١٥٧/٢

ومثل مدحه للوزير المهلبي بقوله :

أغر يراه الناس غرة دهرهم إذا كان دهماء البرية أدهما

إذا ما سقت يمناه ريا وقبلت
توهمت يمناه الحطيم وزمزما(١)

ويكون السرى بذلك مطبقا ما قرره قدامة الذى قصر المدح على الفضائل النفسية ، حيث يقول : « إنه لما كانت فضائل الناس — من حيث هم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أولى الألباب من الاتفاق فى ذلك — إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصد إلى مدح الرجال بهذه الخصال الأربع مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا »(٢) .

ويفرع قدامة من هذه الخصال الأربع صفات كثيرة مثل : الحلم عن سفاهة الجهلة والعلم ، والحماية والدفاع والمهابة ، والسماحة، وقرى الأضياف وغير ذلك(٣) .

ويكون السرى مطبقا فى مدحه أيضا ما قرره ابن رشيق ومن وافقه بجواز المدح بالصفات الجسمية إضافة إلى الصفات النفسية ، يقول ابن رشيق — فى معرض ذكر الصفات التى ينبغى إيرادها فى المدح — : « وأكثر مايعول على الفضائل النفسية التى ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية ، كالجمال والأبهة ، وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا ، وكثرة العشيرة ، كان ذلك جيداً ، إلا أن قدامة قد أبى منه وأنكره جملة ، وليس

---

(١) ديوانه ٢/٦٨٣

(٢) نقد الشعر ٦٨

(٣) أنظر نقد الشعر ٧١

ذلك صوابا ، وإنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما إنكار ماسواها كرة واحدة فما أظن أحدا يوافقه فيه أو يساعده عليه »(١) .

وابن سنان الخفاجى ينقل نقد الآمدى لقدامة فى قصره المدح على الفضائل النفسية قائلا : « وقد أنكر هـــذا المذهب على أبى الفرج(٢) أبو القاسم الآمدى ، وقال : إنه خالف فيه مذاهب الأمم كلها أعجميها وعربيها ، لأن الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ، ويتيمن به ويدل على الخصال الحميدة »(٣) .

ووافق ابن سنان الآمدى فى نقده هذا حيث يقول : « وهذا الذى ذكره أبو القاسم صحيح ، ولو لم يكن فى ذلك إلا ما قد جبلت النفوس عليه من الميل إلى الوجوه الحسان لـكفى وأغنى .. فإن كان قدامة يعتقد أن ذلك ليس بفضيلة لمـا كان الانسان قد خلق عليه »(٤) .

ورأى قدامة فيه تقييد للشاعر فى ذكر صفات المدح ومميزاته ، ولـكن رأى الجمهور من النقاد أصوب ، لأن من مميزات الانسان الأوصاف العرضية والجسمية ، وقد جبلت النفوس — كما يقول ابن سنان — على الميل إلى الوجوه الحسان .

ومن ناحية أخرى نجد السرى قد سار وفق المقاييس التى ينبغى أن تتبع فى مدح الملوك ، ومن فى مستواهم من أمراء الدول ، وذلك من حيث

---

(١) العمدة ٢/١٣٥

(٢) هو قدامة بن جعفر .

(٣) سر الفصاحة ٢٥٧

(٤) المصدر السابق .

الألفاظ الجزلة والمعانى القوية ، ومن حيث الإيضاح والإيجاز ، وهذا يوافق مارسمه ابن رشيق بقوله : « وسبيل الشاعر — إذا مدح ملكا — أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية ، غير مبتــذلة سوقية ، ويجتنب — مع ذلك — التقصير والتجاوز والتطويل ، فإن للملك سآمة وضجرا ، ربمــا عاب من أجلها ما لا يعاب ، وحرم من لا يريد حرمانه ، ورأيت عمل البحترى — إذا مدح الخليفة — كيف يقل الأبيات ، ويبرز وجوه المعانى »(١) .

وهذه المقاييس عند النقاد القدامى أمثال ابن رشيق ، ولـكن بعض النقاد المحدثين يقولون : « إن أسلوب المدح كثيرا ما يعتمد على الجزالة والقوة ، لأنه تعبير عن الإعجاب ، وبخاصة إذا كان مدحا بالشجاعة والبأس والظفر ، وقد يعتمد على الهدوء واللين إذا كان تحليلا لشخصية العظيم الذى يشيد به الشاعر »(٢) .

وعلى كل فالسرى قد وفق فى فن المدح ، واتبع المقاييس التى تعارف عليها الشعراء والنقاد فى عصره ، وتميز بخصائص أهمها : انتشار الألوان البديعية فى شعره وخاصة الطباق وجناس الاشتقاق ، وقد أولع بالتشبيهات الحسية الرائعة ، التى يجارى فيها ابن المعتز ، وقد أورد الاستعارات اللطيفة التى اعتمد فيها على المناظر الطبيعية ، كل ذلك بعبارة سهلة التركيب ، ذات ألفاظ متناسبة مختارة ، جزلة رصينة ، بلغة لا التواء فيها ولا تعقيد .

---

(١) العمدة ٢/١٢٨

(٢) الأساس فى النقد والبلاغة ٢ / ١٤٨ .

٢ — فن الهجاء عند السرى

والهجاء فن من فنون الشعر ، تناوله الشعراء من قديم ، والسرى فى أكثر هجائه يأخذ ألوانا عديدة ، غير ما هو متعارف فى الهجاء التقليدى ، نراه ينشىء قصيدة فى المدح ، ثم يعرج إلى الهجاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة كما نراه فى قصيدة أخرى يشكو ويتظلم ويعتب ويصف ويهجو ، فهو هجاء ممتزج بأغراض أخرى من الشعر .

كذلك نرى هجاءه فى أكثره يتجه إلى الشعراء الذين رماهم بالسرقة من شعره ، فصب عليهم أنواعا من التهكم والاستهزاء، بل وسلبهم الشرف والعفة والكرامة ، لأن سرقة الشعر لا تقل مهانة عن سرقة المال ، وقد يكون مصيبا فى اتهام غيره بالسرقة ، وقد يكون بدافع الحقد والتنافس بينه وبين الشعراء ، بل قد يهجو من يميل إلى جانب الشعراء الذين يتهمهم بسرقة شعره ، وهو فى كل هذه الألوان قد يأتى بالسخرية والاستهزاء من مهجوه بصورة مضحكة هزلية ، وقد يأتى هجاؤه فى قالب من التوجع والتألم والأسف على المهجو قد يظنه القارىء أوالسامع من أول وهلة أنه من باب الإخوانيات ، ولكنه فى حقيقته هجاء مر مقذع ، وقد يرثى على سبيل الهجاء .

وله هجاء تقليدى قليل لا يتجاوز عدة قطع شعرية ، قالها فى بخلاء استرفدهم فلم يعطوه شيئا(١) ، أو بخلاء أعطوه القليل فلم يشف غلته(٢) .

وسأورد نماذج من هجاء السرى تؤكد لنا ما ذكرنا :

---

(١) انظر ديوانه ٢/٧٧٩

(٢) ديوانه ٢/٥٥١

ومن ذلك : هجاؤه أبا العباس النامى الشاعر ، يحكى أن أباه كان جزارا بالمصيصة وحلب ، وقد اتهمه السرى بسرقة شعره ، قال من قصيدة [من الوافر] :

أرى الجزار هيجنى وولى فكاشفنى وأسرع فى انكشافى
ورقع شعره بعيون شعرى فشاب الشهد بالسم الذعاف(٢)
لقد شقيت بمديتك الأضاحى كما شقيت بغارتك القوافى
توعر نهجها(٣) بك وهو سهل
وكدر وردها بك وهو صاف
فتمكنت بها مثقفة النواحى على فكر أشد من الثقاف(٤)
لها أرج السوالف حين تجلى
على الأسماع أو أرج السلاف(٥)

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد النامى ، شاعر من فحولة شعراء العصر العباسى ، وخواص سيف الدولة ، وكان عنده تلو المتنبى فى المنزلة والرتبة انظر اليتيمة ١/٢٢٥

(٢) شباب : خلط .

(٣) الضمير فى « نهجها » يعود على القوافى .

(٤) مثقفة : مهذبة معدلة ، الثقاف : ما تسوى به الرماح ، ويقصد به الفكر الصائب الذى يهذب القوافى .

(٥) الأرج والأريج : توهج الطيب ، وأرج الطيب — بفتح الهمزة وكسر الراء — فاح ، السوالف : جمع السالفة وهى ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة ، ويقصد بذلك بداية القوافى ، السلاف : ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر ، ويسمى الخمر سلافا — مختار الصحاح ٣١٠

جمعن الحسنيين فمن رياح معنبرة وأرواح خفاف
وما عدمت مغيرا منك يرمى رقيق طباعها بطباع جافى(١)
معان تستعار من الدياجى وألفاظ تقد من الأثافى(٢)
كأنك قاطف منها ثمارا سبقت إليه إبان القطاف(٣)
وشر الشعر ما أداه فكر تعثر بين كد واعتساف(٤)
سأشفى الشعر منك بنظم شعر
تبيت له على مثل الأثافى
وأبعد بالمردة عنك جهدى فقف لى بالمودة خلف قاف(٥)

نجد هنا الهجاء بطريقة التهكم الهزلى ، بصورة لاذعة ، ورميه بالسرقة ينافى العفة ، فهى من أضداد الفضائل النفسية .

ونلاحظ أن السرى مزج الهجاء بالفخر بشعره ، وأوضح أنه نبع يستقى منه الشعراء ، ويدبجون به أشعارهم .

ونرى فيه صورا بيانية ، كالاستعارة فى قوله : فشاب الشهد بالسم الذعاف ، ويقصد بالشهد شعره ، وبالسم شعر أبى العباس النامى ، الذى خلطه بشعر السرى ، فهما استعارتان تصريحيتان ، وكما فى « غارتك » ويقصد بها السرقة من شعر السرى وقوله : « توعر نهجها » ، والتوعر يراد به خشونة اللفظ وجفافه على سبيل الاستعارة التصريحية أيضا .

---

(١) الجافى : النائى من الجفاء وهو ضد البر .
(٢) الدياجى : جمع دجية وهى الظلمة ، الأثافى : حجارة توضع عليها القدور ، واحدها أثفية بضم فسكون فكسر فياء مشددة .
(٣) إبان : وقت ، القطاف : جمع الثمار وقت نضجه .
(٤) الاعتساف والعسف : الأخذ على غير الطريق .
(٥) ديوان السرى ٢ / ٤١٩ — ٤٢١

وكالاستعارة التصريحية أيضاً فى قوله: «وكدر وردها بك وهو صاف» حيث أراد بالورد أسلوبها الرقيق المشرق الواضح ، وفى قوله «رقيق طباعها» تشبيه بليغ من إضافة المشبه به إلى المشبه .

ومن خصائص هذا الأسلوب : جزالة اللفظ ، ورصانة المعنى ، ووضوح الفكرة وقد جاءت الألفاظ ملائمة للمعانى ، ومعبرة عن انفعال صادق ، فالشاعر تجيش عاطفته بالكره والحنق من سرقة شعره ، فيعيش تجربة شعرية صادقة ، ويغلف هذه العاطفة بخيال بارع .

وكانت العداوة شديدة بين السرى وبين الخالديين(١) اللذين اتهما بسرقة شعره وتظلم منهما فى قصائد عديدة إلى سلامة بن فهد(٢) ، وإلى أبى البركات لطف الله بن ناصر الدولة(٣) ، وهجاهما بقصائد مزج فيها أحياناً المدح لغيرهما ، والتظلم والشكوى منهما ، كذلك عرض بهما فى هجائه لغيرهما .

---

(١) الخالديان هما : أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ، قال عنهما الثعالبى : «إن هذان لساحران ، يغربان بما يجلبان ، ويبدعان فيما يصنعان ، وكان مايجمعهما من أخوة الأدب مثل ماينظمهما من أخوة النسب ، فهما فى الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة ، ويشتركان فى قرض الشعر وينفردان ، ولا يكادان فى الحضر والسفر يفترقان ، وكان بينهما وبين السرى الرفاء الموصلى ما يكون بين المتعاصرين من التغاير والتضاغن ، فكان يدعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره ، ويدس شعرهما فى ديوان كشاجم ليثبت مدعاه ، توفى أبو عثمان ٣٧١ هـ — انظر اليتيمة ١٨٣/٢ ومعجم الأدباء ١ /٨ ٢ فى ترجمة أبى عثمان سعيد بن هاشم الخالدى ، وانظر فى ترجمة محمد بن هاشم الخالدى : الوافى بالوفيات ١٤٩/٥ ، فوات الوفيات ٥٢/٤ .

(٢) أنظر اليتيمة ١٤٢/٢ .

(٣) أنظر اليتيمة ١٤٣/٢ .

فقال يهجو الخالديين ويذكر إغارتهما على شعره ، ويخاطب بذلك أبا الخطاب المفضل بن ثابت الضبي الصابي الكاتب — وهو صديقهما — ويعرض برجل من الكتاب يتعصب لهما تمليه ، وكان ذلك حين سمع أن الخالديين يريدان الرجوع إلى بغداد قبل وفاة الوزير المهلبي — قال(١) — [من الكامل] :

بكرت عليك مغيرة الأعراب ... فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب

ورد العراق ربيعة بن مكدم ... وعتيبة بن الحارث بن شهاب

أفبيننا شك بأنهما ... فى الفتك لا فى صحة الأنساب؟

جلبا إليك الشعر من أوطانه ... جلب التجار طرائف الأجلاب

فبدائع الشعراء فيما جهزا ... مقرونة بغرائب الكتاب

لهما من الخط الصوارم والقنا ... ومن الطروس نفيسة الأسلاب(٢)

شنا على الآداب أقبح غارة ... جرحت قلوب محاسن الآداب

فحذار من حركات صلى قفرة ... وحذار من حركات ليثى غاب

لا يسلبان أخا الثراء وإنما ... يتناهبان نتائج الألباب

إن عز موجود الكلام عليهما ... فأنا الذى وقف الكلام ببابى

أو يهبطا من ذلة فأنا الذى ... ضربت على الشرف المطل قبابى

كم حاولا أمدى فطال عليهما ... أن يدركا إلا مثار ترابى

وهى قصيدة طويلة ، عرج فيها إلى سلب الصفات المعنوية لسعيد

---

(١) أنظر ديوانه ١/٤١٠ ، واليتيمة ٢/١٤٥ .

(٢) الصوارم : السيوف ، القنا : الرماح ، الطروس : جمع طرس وهى الصحيفة .

ابن هاشم الخالدى ، وذكره بذلة أبيه وحقارته ، ثم وصف شعره وأشاد به، وحذر الخالديين مغبة تماديهما فى السرقة ، وهددهما بصوارم الشعر والألفاظ ، ثم ختم القصيدة بالمدح لأبى الخطاب ، وطلب منه أن يسمعه ويرد عليه ويؤيده(١) .

وهو فى هذه القصيدة يتميز بسهولة الألفاظ أيضاً ، وجمال التعبير ، وتسلسل الأفكار . وهى كما قال الثعالبى : « طويلة متناسبة فى الحسن والعذوبة »(٢) ، ونرى فيها تشبيهات رائعة ، كتشبيه الخالديين بربيعة بن مكدم والحارث بن شهاب المشهورين بالفتك والإغارة ، واستعارات جيدة كاستعارة الصلين(٣) والليثين لهما بجامع الضرر فى كل ، وفيها مراعاة نظير بين الصوارم والقنا ، وبين الخط والطرس .

وقال السرى يعرض بالتلعفرى المؤدب(٤) : [من الطويل] :

ينافسنى فى الشعر والشعر كاسد حسود كبا عن غايتى ومعاند

وكل غبى لو يباشر برده لظى النار أضحى حرها وهو بارد

إذا سئلوا عما يلوح تبلدوا كأنهم عند السؤال جلامد

يموت ذكاء الطفل مادام عندهم
وكيف صلاح الفرع والأصل فاسد

---

(١) انظر الديوان والتعليق عليه ١/١٠٧

(٢) اليتيمة ٢/١٤٦

(٣) الصلين : مثنى صل وهو الحية .

(٤) هو أبو الحسن على بن أحمد التلعفرى ، من نصيبين ، كان شاعراً، ولكن شعره لم يجمع فى ديوان ، وكان له طرف متفرقة من شعره ، وقد هجاه السرى بما يدل على أنه من مذكورى الشعراء ببلاد الشام — أنظر اليتيمة ١/٢٨٤

أفيقوا فلن يعطى القريض معلم   وهل يتولى الأغبياء عطارد ؟
فلا تمنحوا منه الكرام قلائدا   فليس من الحصباء تهدى القلائد

والهجاء للنلعفرى كان رمياً بالغباء والحسد ، وهـــذان من أضداد الفضائل النفسية .

ويورد الثعالبى[١] ملحاً مما قاله السرى فى ابن العصب الملحى الشاعر ، وكان شيخاً يتصابب ، ويتعصب للخالديين على السرى، وكان السرى يهجوه جاداً وهازلا ، وينسبه إلى القيادة ، ويذكر كثيراً مشاهدة أهل الريب[٢] فى منزله ، ولا يبق ولا يذر فى التولع به ، .

فمن ملحه فيه قوله من قصيدة [من الطويل] ويعرض بالخالديين المغيرين على شعره :

أنا شد دهرى أن يعود كما بدا   فقد غارنى فى الحادثات وأنجدا
توعدنى من بعد ماوعد الغنى   فأنجز إيعادا وأخلف موعدا
ومن عجب أن الغبيين[٢] أبرقا   مغيرين فى أقطار شعرى وأرعدا
فقد نقلاه عن بياض مناسبى   إلى نسب فى الخالدية أسودا
وإن عليا[٣] بائع الملح بالنوى   تجرد لى بالسب فيمن تجردا
وعندى له لو كان كفؤا قوارضى
قوارض ينثرن الدلاص المسردا[٤]

---

(١) انظر اليتيمة ٢/١٥٠
(٢) أى : أهل الشك والتهمة .
(٢) يقصد الخالديين .
(٣) هو ابن العصب الملحى .
(٤) الدلاص : اللين البراق الأملس ، المسرد : يقال: درع مسرودة =

ومغموسة في الشرى والأرى هذه
ليردى باغ وتلك لترتدى(١)
لك الويل إن أطلقت بيمن سيوفها
وأطلقتها خزر النواظر شردا(٢)
ولست لجد القول أهلا وإنما أطير سهام الهزل مثنى وموحدا
نصبت لفتيان البطالة قبـــة ليدخلها الفتيان كهلا وأمردا
وكان طريق القصف وعرا عليهم
فسهلته حتى رأوه معبدا(٣)
وكم لذة لامن فيها ولا أذى
هديت لها خدن الضلالة فاهتدى(٤)
معدا لهم فى كل يوم مجدد من الراح والريحان عيشا مجددا
إذا وصلوا أضحى الخوان مدبجا
وإن هجروا أمسى سليباً مجردا(٥)

= ومسردة بتشديد الدال — : وهو نسجها أي تداخل الحلق — بفتحتين — بعضها فى بعض ، وقيل السرد : الثقب ، فمسرودة : مثقوبة — مختار الصحاح ٢٩٤

(١) الشرى : من شرى جلده أى صدى من الشرى وهو خراج صغير لها لذع شديد ، والأرى — بفتح فسكون — العسل ، يردى : يهلك ، يرتدى : يلبس الرداء .

(٢) خزر : الخزر — بالتحريك — : ضيق العين وصغرها ، وقيل هو الحول فى العين .

(٣) القصف : اللهو ، وعرا : صعبا ، معبدا : مذللا .

(٤) خدن : صديق .

(٥) الخوان : مايفرش تحت الطعام ، مدبجا : مزينا .

فإن شرعوا فى لنة كنت بيعــة
ولإن طمعوا فى مرفق كنت مسجدا
لك القبة العلياء أوضحت نهجها وأطلعت منها للفتوة فرقدا(١)
يصادف منها الزور جدياً مبرزاً
وباطية ملأى وظبيا مغردا(٢)
وقــد فضلت شم القباب لأننى
نصبت عليها بالقصائد مطردا(٣)

نلاحظ أيضاً فى هذه القصيدة : سلب الفضائل النفسية ، فالسرى يرمى الخالديين بالغباء . وهذا سلب لأجل نعمة وهو العقل الـكامل ، ثم يسلب ابن العصب الملحى عفته وكرامته ، حيث يتهمه بأنه يأتى بالفتيات حول موائده ، ليضلهم عن الطريق السوى ، وهذا اتهام بشع ، إذا لم يكن حقيقة ؛ فهو سب وقذف ، والإسلام ينهى عن ذلك ،

وقد رأينا أسلوبه يجمع فى كثير من تعبيراته الجزل من اللفظ ، ورصانة المعنى ، والملاءمة بين أفكاره وألفاظه ، فى صور بيانية مؤثرة ، منها : الاستعارة العنادية فى كل من : « هديت » والمراد بهـا : غويت ، و « اهتدى » والمراد بها : ضل .

ويشيع فى القصيدة لون الطباق ، وهذا ظاهر فى الأبيات الأولى ؛ كالطباق بين : « غار » و « أنجد » ، الطباق بين : « توعدنى » و « وعد » والمقابلة بين : « أنجز إيعادا » و « أخلف موعدا » .

(١) القبة : من البناء ، النهج : الطريق الواضح ، الفتوة : القوة ، فرقدا : نجما .

(٢) باطية : إناء وهو معرب ، مبرزا : ظاهرا ، مغرد : — من الغرد بفتحتين — : التطريب فى الصوت والغناء .

(٣) شم القباب : أى المبانى العالية .

وهناك الجناس الناقص بين « توعدنى » و « وعد » وكذلك بين : « إيعاد » و « موعد » ، وغير ذلك من الأصباغ الرائقة دون تكلف أو تعسف .

والسرى فى فن الهجاء يرتسم طريق الشعراء ، ويسير على مقتضى مقاييس النقاد أمثال قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى[1]، حيث قررا : أن الهجاء يكون بسلب الفضائل النفسية ، وأن تكون المعانى ملائمة للألفاظ التى تحملها .

ولكن السرى حين يفحش القول، ويقذع فى الهجاء والسب والقذف، يكون مخالفاً لمذهب أكثر الشعراء . فأبلغ الهجاء كما قال خلف الأحمر . « أعفه وأصدقه ، وقال مرة أخرى : ما عف لفظه ، وصدق معناه[2] » .

وقد قال صاحب الوساطة : « فأما الهجو : فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه، وسهل لفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن »[3] .

ويروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « خير الهجاء ماتنشده العذراء فى خدرها ، فلا يقبح بمثلها ، نحو قول أوس :

إذا ناقة شدت برحل ونمرق ... إلى حيكم بعدى فضل ضلالها

واختار أبو العباس قول جرير :

لو أن تغلب جمعت أحسابها ... يوم التفاخر لم تزن مثقالا

---

(١) أنظر نقد الشعر ١٠١ ، ١٠٢ والصناعتين ١١٠ ، — ١١٢

(٢) العمدة ٢/١٧١

(٣) المصدر السابق .

ومثل قوله :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وبين الاختيارين تناسب فى عفة المذهب . غير أن بيت جرير الثانى أشد هجاء لما فيه من التفضيل ، فقد حكى محمد بن سلام الجمحى عن يونس ابن حبيب أنه قال : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وهو الإقذاع عندهم »(١) .

وقول يونس بن حبيب يتفق ومذاهب الشعراء فى الهجاء ؛ نقل ذلك ابن رشيق حيث يقول : « وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصواب ، إلا جريراً فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا ، وقال أيضاً : إذا هجوت فأضحك ، وسلك طريقته فى الهجاء سواء على بن العباس بن الرومى ؛ فإنه كان يطيل ويفحش ، وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح ، لاتساع الظن فى التعريض ، وشدة تعليق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحا به النفس علما ، وقبلته يقينا فى أول وهلة ، فكان كل يوم فى نقصان لنسيان أو ملل يعرض(٢) » .

وقد خلص ابن رشيق إلى أن « أجود ما فى الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان فى الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم ، وقدامة لا يراه هجوا ألبتة ، وكذلك ما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد لا يراه عيباً ،

---

(١) المصدر السابق ٢/١٧٠

(٢) العمدة ٢/١٧٢ ، ١٧٣

ولا يعد المهجو به صواباً ، والناس — إلا من لا يعد قلة — على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد فى الطباع ، وقد جاء ما أكد ذلك من أحكام الشريعة »(١) .

والإسلام يحرم الهجاء المقذع ، ويجعل عقوبته قطع اللسان إن لم يتب الشاعر عن الإقذاع ، حكى ابن رشيق قال : « قال النبى ﷺ : « من قال فى الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر » ، ولما أطلق عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الحطيئة من حبسه إياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر قال له : إياك والهجاء المقذع ، قال : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر ، ولكن حبانى هؤلاء فمدحتهم ، وحرمنى هؤلاء فذكرت حرمانهم ولم أنل من أعراضهم شيئاً ، وصرفت مدحى لمن أراده ، ورغبت به عمن كرهه ، وزهد فيه »(٢) .

والسرى الرفاء يبالغ فى قذف مهجوه فى بعض قصائده ، وقد سلط لسانه الحاد على ابن العصب الملحى فى عديد من قصائده .

فمن هجائه الذى يتضمن الفحش فى القول والقذف والسب قوله فى هجاء(٣) ابن العصب الملحى واصفاً غرفته [من الخفيف] :

أربعاء حسامه مشهور	حين يأتى وشره محذور
نتوقاه أول الشهر إن دا	ر ونخشاه آخراً لا يدور
فاغد سرا بنا إلى قفص الملـ	ـحى فالعيش فيه غض نضير
مجلس فى فناء دجلة يرتا	ح إليه الخليع المستور

---

(١) العمدة ٢/١٧٤ (٢) العمدة ٢ / ١٧٠

(٣) ديوان السرى ٢/٢١٩ ، ٢٢٠

وإذا غارت الكواكب صبحا   فهو الكوكب الذى لا يغور
ليس فيه إلا خمار وخمر   ومماتٌ من نشوة ونشور
وحديث كأنه زهر المنـ   ـثور حسناً أو لؤلؤ منثور
وجريح من الدنان تسيل الر   راح من جرحه وقدر تفور
ولك الظبية الغريرة إن شئـ   ـت وإن عفتها فظى غرير
فتمتع بما تشاء نهاراً   ثم بت معرساً وأنت أمير
كل هذا بدرهمين فإن زد   ت فأنت المجبل المحبور

وقوله(١) من قصيدة يهجو فيها الخالدى وابن العصب، وقد ناضل عنه، وينسب ابن العصب إلى القيادة، ويصف الدراهم [من الطويل] :

شققت قذال الخالدى بمنطق   يشق من الأعداء كل قذال(٢)
وناضلنى الملحى عنه فأصبحت   جوارحه مجروحة بنبال
وقد كان يخلى بيته لمآربى   إذا زار إلف أو حبا بوصال(٣)
على أنه يكريه يوماً بخمسة   موجهة بيض الوجوه ثقال
تحلت بذكر الله من كل جانب   فهو بذكر الله خير حوالى
يبيح بها الملحى طوراً قذاله   وطوراً حريمى منزل وعيال
فإن شئت أن تحظى بوصل غزالة   مهفهفة الكشحين أو بغزال(٤)
فقدم له الجدى الرضيع وثنه   بعذراء من ماء الكروم زلال(٥)

---

(١) ديوانه ٢/٥٧٢ ، ٥٧٣

(٢) القذال : جماع مؤخر الرأس ، وجمعه أقذلة وقذل .

(٣) مآرب : جمع مأربة وهى الحاجة .

(٤) مهفهفة : امرأة مهفهفة أى ضامرة البطن ، الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .

(٥) الجدى : بفتح فسكون : ولد الماعز ، زلال : عذب .

ولا تلقه إلا بخير وسيلة يلوح على وجهيه خير مقال
بباز إذا أرسلته صاد كل ما تروم به أو نال كل منال(١)

وقوله فيه من قصيدة قد وصف فيها الديك والحمام أيضاً [من البسيط]:(٢)

ملنا إلى غرفة الملاحى إن بها
ظبياً من الإنس مبذول الخلاخيل(٣)
نزوره وبقايا الليل تسترنا فنهتدى لخليع منه ضليل(٤)
يرضى النديم ويرضى عن مروءته
إذا أتاه بمشروب ومأكول
وإن رآه رقيق الوجه قال: أرق
كأس الحياء بضم أو بتقبيل
فزرت إذ ذرته قنديل بيعته فالزيت ينشر أضواء القناديل

وفى الأبيات السابقة مايدل على أن السرى كان خليعاً، يشرب الخمر، ويزور النساء.

---

(١) الباز: لغة فى البازى وهو الطائر المعروف، تروم: تقصد، من رام.

(٢) ديوانه ٢/٥٤٦

(٣) مبذول: من بذل الشيء: أعطاه وجاد به، وابتذال الثوب وغيره: امتهانه، ومبذول الخلاخيل يقصد به التفريط فى الشرف.

(٤) وفى التيمية ٢/١٥٢ «وفيه» بدل «منه»، الضليل: أى ضال جداً، والضلال: ضد الرشاد.

وقوله فيه(١) ذاكراً قيادته وبيعه النبيذ [من المنسرح] :

شيخ لنا من شيوخ بغداذ   أغذ فى القصف أى إغذاذ(٢)
رق طباعاً ومنطقا فغــدا   وراح فى المستشف كاللاذ(٣)
تطن تحت الأكف هامته   إذا علتها طنين فولاذ(٤)
قواد إخوانه فإن ظمئوا   سقاهم الراح سق نباذ(٥)
له على الشط غرفة جمعت   كل خليع نشــا ببغداذ
يقـــول للزائر المــلم به   أوصل هذا ألذ أم هذى ؟

وهذا الإفحاش مما يؤخذ على السرى الرفاء فى الهجاء ، فأخلاق الشعراء ينبغى أن تبعد عن هذا السب والقذف والإقذاع ، وليكن مارسمه الإسلام لهم مرشداً وهاديا ، لا مارسمه الهوى والحنق والحقد .

هذا : ولم يعن نقاد العرب الأقدمين بالبحث عن السر فى أن الهجاء من ألوان الأدب ، ولكنهم مضوا يتوارثون عده فنا من فنون الشعر ، مع أنه يصف مشاهد مؤذية ، ويرون أن الانفعال الذى يثيره الغضب(٦) .

---

(١) ديوان السرى ٢/١٥٣

(٢) أغذ : أسرع وأمعن ، القصف : اللهو .

(٣) اللاذ : ثياب حرير أحمر ينسج بالصين ، والمستشف : من شف : رق حتى يرى ما تحته .

(٤) الهامة : الرأس ، الطنين : صوت الذباب والطست والبطة ، فولاذ نوع من الحديد ، يريد أن يقول : إن الأكف إذا علت وضربت هامة الملحى ظهر الصوت وكأنه صوت الفولاذ .

(٥) الراح : الخمر ، نباذ : الذى يبيع النبيذ ويعمله .

(٦) أنظر أسس النقد الأدبى ٢٥٠ للدكتور أحمد بدوى .

ولكن النقاد المحدثين بحثوا عن الباب الذى دخل منه الهجاء ميدان الأدب ، فقرروا : « أن المعرفة المقرونة بالإعجاب هى المعرفة الجمالية ، التى يستهدفها الأدب ، وما الفكرة الجمالية إلا هذه التى نتأثر منها ، وتثير انفعالنا ، لأنها مصدر إعجاب لذاتها ، أى حتى لو كان موضوع الأدب فى حد ذاته غير موصوف بالجمال ، ومن هذا الباب يدخل الهجاء وغيره فى باب الأدب »[1] .

وما هذه الانفعالات التى يثيرها الهجاء فى نفوسنا ؟

« إنه يثير فينا الإعجاب بالشاعر الذى استطاع أن يرسم بقلمه النقائص التى يراها فيمن يهجوه ، وبهذه المهارة التى رسمها بها ، كما يعجب المرء بصورة مصور ماهر ، صور بائساً بالى الثياب ، متغضن الوجه ، معروق العظام .

يثير فينا ناحية التهكم الباعثة على الابتسام ، بل على الضحك أحيانا ، ولذا كان من وصايا جرير فى الهجاء قوله : « إذا هجوت فأضحك »[2] .

وإذا كان الهجاء قد شاع فى العصور السابقة ، فإن عصرنا الحديث يندر فيه تناول فن الهجاء فى الأدب العربى ، وهذا يرجع إلى كثرة الأغراض الأخرى ، التى حلت محله ، مثل الشعر السياسى ، والشعر الاجتماعى ، الذى ينقد أحوال السياسة العامة ، وأحوال المجتمع المختلفة ، والنقد فى هذه الحالات لا يبلغ مبلغ الهجاء ، وقد هجر الشعراء المحدثون أساليب الهجاء — أيضا — : « لأنه من الأغراض التى أماتها استنكار النقاد ، والعرف العام ، والحياة العصرية ، ومافيها من قوانين مدنية ،

---

(١) ينظر تيارات أدبية من الشرق والغرب ص ١٢ للدكتور إبراهيم سلامة .

(٢) أسس النقد الأدبى ٢٥١

تعاقب المعتدين على أعراض الناس ، ولم يبق إلا مداعبات لطيفة ، فيها تهكم وسخرية ، وتصوير لا يتناول المحارم والأعراض ، ولا تقذع ولا تفحش ، وإنما يعتمد على النكتة اللاذعة ، والتصوير البارع ، وإذا احتدم الهجاء بين الشعراء — في عصرنا الحديث — أفشوا ولكنهم يستحيون من تدوينه ، ويتناقله الرواة شفاها ، وكأنهم يخشون أن يؤثر عنهم في عصرنا هذا »[1] .

(١) في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ٢/٢٣٦



٣ – فن الغزل والنسيب
فى شعر السرى

والغزل فن من فنون الشعر العربى ، استعذبه الشعراء قديما وحديثا ، وصدروا فيه عن مكنون أنفسهم ، وما اعتلج فى أفئدتهم من عواطف جياشة بالحب ، وما امتزج فى قلوبهم من صبابة الهوى .

ولفظ الغزل يرادف النسيب والتشبيب عند كثير من الشعراء والنقاد ، وكذلك عند أهل اللغة .

قال إياس بن سهم :

نسبنا بليلى فانبعثت تعيبها   أضل من الحجام أو ساق مغزل

يريد حجام ساباط ، ويقال : إن صاحب الغزل أضل من ساق مغزل ، وضلاله أنه يكسو الناس وهو عار »(١) .

« ويقال : شبب قصيدته بفلانة ، قال عمر بن أبي ربيعة :

فبتلك أهذى ما حييت صبابة   وبها الحياة أشبب الأشعارا (٢)

وابن سلام الجمحى يستعمل « التشبيب » مكان الغزل ، إذ يقول فى معرض حديثه عن عبدالله بن قيس الرقيات : «وكان غزلا ، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبى ربيعة ، وكان عمر يصرح بالغزل ولا يهجو ، ولا يمدح ، وكان عبد الله يشبب ولا يصرح »(٣) .

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى ٤٥٠ مادة « غزل »
(٢) أساس البلاغة ٣١٨ مادة « شبب »
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٥٣٠ ، وانظر أسس النقد =

كما يستخدم « النسيب » مكان « التشبيب » إذ يقول : « وكان لكثير فى التشبيب نصيب وافر ، وجميل مقدم عليه ، وعلى أصحاب النسيب جميعاً فى النسيب »[1] .

وابن قتيبة يدعو شعر عمر بن أبى ربيعة فى النساء تشبيبا ، قال : « وكان عمر . . . يتعرض للنساء الحواج ، ويتشبب بهن ، وكان يشبب بسكينة ، وشبب ببنت عبد الملك بن مروان »[2] .

واللغويون لا يفرقون بين كلمات الغزل والتشبيب والنسيب ، فهم يعرفون إحدى الكلمات الثلاث بالأخرى ، ذكر ذلك ابن منظور فى لسان العرب[3] ، وابن سيده فى المخصص[4] ، وذكر ذلك أيضاً صاحب القاموس المحيط[5] .

ولكننا نجد قدامة بن جعفر يحد النسيب بمعنى يخالف معنى الغزل ، فيقول فى تعريفه[7] : « إن كثيراً من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولا

= الأدبى عند العرب للدكتور أحمد بدوى ١٤١ ، ومعنى أنه : يصرح بالغزل : أى يجعل شعره خالصا للغزل .

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٦١ وانظر البحث البلاغى والنقدى بين قدامه بن جعفر وأبى هلال العسكرى ٤٢٩

(٢) الشعر والشعراء ١٣٢ ، وينظر أسس النقد الأدبى عند العرب ١٤١ ،

(٣) انظر لسان العرب ١/٤٨١ مادة «شبب» ، ١/٧٥٦ مادة « نسب »

(٤) انظر المخصص لابن سيده مادة نسب وشبب .

(٥) انظر القاموس المحيط مادة « نسب » وانظر أسس النقد الأدبى عند العرب ١٤٠ ، والبحث البلاغى والنقدى بين قدامة وأبى هلال ٤٢٩

(٦) نقد الشعر ١٣٩ ، ١٤٠

ما النسيب ؟ ونحن نحده فنقول : إن النسيب ذكر الشاعر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن » .

ويفرق بينه وبين الغزل فيقول(١) : «وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق ما بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما : أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزال ، والغزل المعنى نفسه ، والغزل هو التصابى والاستهتار بمودات النساء .

ثم يأتى ابن رشيق فيتأثر بقدامة فى تفريقه بين الغزل والنسيب ، غير أنه يجعل النسيب والتغزل والتشبيب بمعنى واحد يخالف معنى الغزل ، فيقول : « النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد .. وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، فمن جعله بمعنى جعله التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه « نقد الشعر(٢) » .

وقد رأينا صاحب اليتيمة يضع عنوانا للغزل والنسيب عند السرى الرفاء ، ويجعلهما مترادفين ، مما يدل على أن المعنيين عندهما واحد .

ولنبدأ فى إيراد نماذج لشعر الغزل عند السرى الرفاء .

يطلق الثعالبى على نماذج الغزل عند السرى اسم « غرر من الغزل والنسيب ، وما يتغنى به من شعر السرى (٣) ، ويقول : وما أرانى أروى أحسن ولا أشرف ولا أعذب ولا ألطف من قوله (من البسيط) :

---

(١) نقد الشعر ١٤٠

(٢) العمدة ١١٧/٢

(٣) أنظر اليتيمة ١٥٨/٢

قسمت قلبي بين الهم والكمد
ومقلتي بين فيض الدمع والسهد (١)

ورحت في الحسن أشكالا مقسمة
بين الهلال وبين الغصن والعقد (٢)

أريتني مطراً ينهل ساكبه
من الجفون وبرقاً لاح من برد(٣)

ووجنة لا يروي ماؤها ظمئي
بخلا وقد لذعت نيرانها كبدي (٤)

فكيف أبقى على ماء الشئون وما
أبقى الغرام على صبري ولا جلدي (٥)

نرى التشبيه الواضح ، والاستعارة الناصعة من خلال تعبيراته ، كتشبيه الحبيبة بالهلال وبالغصن ، وكاستعارة المطر للدمع ، واستعارة النيران لشدة الصبابة ولواعج الهوى .

ومما يأخذ بمجامع القلوب قوله(٦) [من الوافر] :

---

(١) الكمد : الحزن ، الهم : الحزن ، المقلة : شحمة العين التي بين البياض والسواد .

(٢) العقد بكسر العين وسكون القاف : القلادة .

(٣) البرد بفتحتين : حب الغمام .

(٤) الوجنة : ما ارتفع من الخد .

(٥) الشئون : جمع الشأن : وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجيء الدموع ، الجلد : الصلابة .

(٦) اليتيمة ٣/١٥٩ ، ومعجم الأدباء ١١/١٨٦

بلانى الحب منك بما بلانى
فشأنى أن تفيض غروب شانى (١)
أبيت الليل مرتقبا أناجى بصدق الوجد كاذبة الأمانى (٢)
فتشهد لى على الأرق الثريا
ويعلم ما أجن الفرقدان (٣)
إذا دنت الخيام به فأهلا
بذاك الخيم والخيم والدوانى (٤)
فبين سجوفها أقمار تم وبن عمادها أغصان بان (٥)
ومذهبة الخدود بجلنار مفضضة الثغور بأقحوان (٦)
سقانا الله من رياك ريا وحيانا بأوجهك الحسان

---

(١) الغروب : — بضم الغين — : جمع غروب وهو عرق فى العين ، والشان : مجرى ، والشأن : الحال ، وبين شأنى — بالهمزة — وشانى بدون همزة جناس

(٢) هناك طباق بين بصدق ، و كاذبة

(٣) فى الثريا استعارة مكنية حيث شبة الثريا بإنسان ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهى الشهادة ، أجن : من أجن الشيء فى صدره : أكنه ، وأجنت المرأة ولدا : أكنته فى بطنها ، الثريا : النجم ، الفرقدان : نجمان فى السماء أحدهما فى القطب الشمالى والثانى فى القطب الجنوبى .

(٤) الخيم — بكسر الخاء — : الطبع والشيمة ، وبالفتح فالسكون : السرادق ، وكذا الخيمة ، والخيمة بيت تبنيه الأعراب من عيدان الشجر والجمع خيمات وخيم ، والخيم مثل الخيمة والجمع خيام .

(٥) السجوف : جمع سجف وهو الستر ، وفى البيت استعارتان تصريحيتان هما : أقمار وأغصان بأن والمراد بهما المحبوب .

(٦) الجنار : زهر الرمان ، الأقحوان — بضم الهمزة وسكون القاف وضم الحاء : ورد له نور أوراقه فى شكلها أشبه بالأسنان .

ستصرف طاعتى عمن نهانى دموع فيك تلحى من لحانى(١)
ولم أجهل نصيحته ولكن جنون الحب أحلى فى جنانى(٢)
فياولع العواذل خل عنى ويا كف الغرام خذى عنانى(٣)

وقد تميز الشاعر فى غزله بألفاظ عذبه سلسة رقيقة، ناسبت رقة القلب الذى أضناه الحب، وجاءت عباراته مشرقة صافية، شابهت شفافية روح المحب، وكسى الشاعر معانيه باستعارات لطيفة، ظهرت فى ثنايا عباراته التى شعت بنور الحب، وأضاءت بإشراقة روح المحب التى شفها الوجد، وقد أوضحت بعضا من هذه الاستعارات فى هامش الصفحة.

كما جمل الشاعر أسلوبه بأصباغ بديعية، ما بين جناس، وطباق، ومراعاة نظير، فالجناس بين قوله: فشأنى وشانى، وبين الخيم — بكسر الخاء —. والخيم بفتح الخاء وسكون الياء وبين جنون وجنانى، والطباق: بين بصدق الحب وبين كاذبة الأمانى، ومراعاة النظير: بين الثريا والفرقدان، وبين جلنار وأقحوان.

---

(١) لحا العصا: قشرها، ولحاها يلحاها ولحاه لحيا مثله، ولحاه يلحاه لحيا: لامه فهو ملحى، والظاهر أن المراد من لحى هنا المعنى الثانى أى: دموع تلوم من لامنى.

(٢) الجنان بالفتح: القلب، وفى جنون: استعارة تصريحية المراد منها تملك الحب فى القلب وصرفه عن أى شىء.

(٣) الولع: بفتحتين: الإغراء، العواذل: وجمع عاذله أى لائمه من العذل وهو اللوم، العنان — بكسر العين —: سير اللجام، والمراد به هنا: القياد على سبيل الاستعارة التصريحية، وفى لفظ الغرام استعارة مكنية حيث شبه الغرام بإنسان ثم حذفه ورمز له بشىء من لوازمه وهو كف.

وقال السرى من قصيدة[١] (من البسيط) :

ومن وراء سجوف الرقم شمس ضحى
تجول فى جنح ليــل مظـلم داجى[٢]

مقدودة خرطت أيـدى الشباب لهـا
حقين دون مجـال العقد من عـاج[٣]

وقال من أخرى[٤] (من الخفيف) :

لطمـت خـدها بحمر لـكاف
نـال منها عـذاب بيض عذاب

فتشـكى العناب نـور الأقاحى
واشتـكى الورد نـاضر العنـاب[٥]

وقال[٦] (من مجزوء الـكامل) .

قامت وخوط البانــة الـ ميــاس فى أثوابهـا[٧]

---

(١) اليتيمة ٢ / ١٥٩

(٢) السجوف ـ جمع سجف ـ وهو الستر، والرقم : يطلق على الكتاب والبنيان ، والمراد به هنا الثانى

(٣) مقدودة : من القد وهو القامة

(٤) اليتيمة ٢ / ١٥٩

(٥) العناب : شجر حبه كحب الزيتون أحمر، الأقاحى: جمع أقحوان وهو ورد له نور أوراقه فى شكلها أشبه شىء بالأسنان .

(٦) اليتيمة ٢ / ١٥٩

(٧) الخوط : الغصن الناعم ، البان : شجر معتدل القوام لين ورقه كورق الصفصاف ، المياس : من ماس : بمعنى تبختر

ويهزها سكران سكـ ـر شرابهـا وشبابها
تسعى بصهباوين من ألحـــاظها وشرابها(١)
فكأن كأس مدامهـا لما ارتدت بحبابها(٢)
توريـــد وجنتها إذا ما لاح تحت نقابها(٣)

ونلحظ أيضا فى الأبيات السابقة الصور البيانية المشرقة من استعارات وتشبيهات ، فمن الاستعارات قوله : شمس الضحى حيث استعارها لحبيبته، وهى وإن كانت فى الأصل استعارة قريبة مبتذلة إلا أن الشاعر صيرها غريبة بعيدة ، وذلك بإيهام : أنها شمس تجول فى جنح ليل مظلم .

ومنها : استعارة العناب لأصابع تلطم الخد ، واستعارة الورد لخدود تشتكى من العناب ، واستعارة خوط البان لقدها المتبختر المهتز ، وجعل الشاعر الاهتزاز والتبختر سكر شباب أضيف إلى سكر شراب .

وما أروع التشبيه فى قوله : ويهزها سكران . البيت ، حيث شبه شبابها فى تأثيره بالسكر . وكذا فى تشبيه : ألحاظها بالصهباء فى قوة التأثير ، وما ألطف التشبيه فى قـوله : فكأن كأس مدامها . . . إلى آخر البيتين ، حيث شبه كأس الخمر وقد علاه حبابها بحمره وجنة الحبيب التى لاحت تحت النقاب .

---

(١) الصهباوان : مثنى صهباء وهى الخمر ، ألحاظ : جمع لحاظ بفتح اللام وهو مؤخرا العين ، ويقصد به هنا العين .

(٢) المدام — بضم المـيم — : الخمر ، حبابها : الحباب بفتح الحاء : نفاخات الماء التى تعلوه ،

(٣) النقاب : ما يستر وجه المرأة .

ومن قول السرى فى الغزل(١) (من الكامل) :

لبست مصندلة الثياب فمن رأى
صنماً تسربل قبلها أثوابا(٢)

وحكت من الظبى الغرير ثلاثة
جيدا وطرفاً فاتراً وإهابا(٣)

وصفها فى البيت الأول بأنها معطرة الثياب ، ثم يتعجب منها لأنها كالصنم الذى ألبس ثيابا ، وتشبيهها بالصنم الذى ألبس ثيابا تشبيه غير مقبول ، يأباه الذوق السليم ، فلا يليق أن يشبه بالصنم إلا فى مقام الذم والهجاء ، حيث يعبر به عمن لا يحس ولا يشعر ، فيقال فى الذم : فلان كالصنم لا يتحرك ولا يشعر ، ولا يضر ولا ينفع .

ويشبه السرى المتغزل بها بالظبى من حيث الجيد والطرف وهذا تشبيه مقبول ومتداول ، إلا أن تشبيهها بالظبى من حيث الإهاب أى الجلد فليس مقبولا ، فلا يقال : إهابها كإهاب الظبى ، لأنه لا معنى لهذا التشبيه .

ومن قوله أيضا من قصيدة طويلة(٤) فى الغزل [من الطويل] .

---

(١) انظر اليتيمة ٢/ ١٦٠

(٢) مصندلة : الصندل : شجر طيب الرائحة ، أى : لبست الثياب الذى تفوح منه رائحة طيبة كرائحة شجر الصندل ، السربال : القميص ، وسربله فتسربل : أى ألبسه الثياب .

(٣) الجيد : العنق ، الطرف — باسكان الراء — : العين ، فاتر : يقال طرف فاتر : إذا لم يكن حديدا ، الإهاب : الجلد ما لم يدبغ .

(٤) انظر اليتيمة ٢/١٦٠ .

إذا برزت كان العفاف حجابها ... وإن سفرت كان الحياء نقابها (١)
حمتنا الليالى بعد سباكنة الحمى ... مشارب يهوى كل ظام شرابها(٢)
ألا حظها لحظ الطريد محله ... وأذكرها ذكر الشيوخ شبابها(٣)

وهنا أيضا التشبيهات الجميلة ، حيث شبه العفاف بالحجاب ، والحياء بالنقاب ، كما شبه اللحظ إليها بلحظ الطريد إلى مكانه الذى طرد منه ، بجامع الحنين والشوق ، كذلك شبه تذكرها بتذكر الشيوخ شبابهم بجامع ما فى كل من إعادة ذكرى عزيزة على النفس .

هذا ما كان من خصائص السرى البيانية فى فن الغزل ، وما تميز به من تشبيهات واستعارات وأصباغ بديعية ، كلها مشرق وواضح — ما عدا المنذر القليل .

أما من حيث التزامه بما يتطلبه هذا الفن من مقاييس ، فإننا نجد فى النماذج السابقة : رقة الألفاظ ، وعذوبة التعبير ، وحلاوة الجرس ، ولين القول ، وسهولة المعنى ، والخضوع للحب ، والإقرار بسطوة الهـوى ، وسلطانه الآسر ، والتهالك والإفراط فى الصبابة ، وذلك فى صدق عاطفة ، وتجربة مؤثرة ، لأنه يصور وجدانه ، ولواعج مكنونه . وقد لاحظنا أن غزله يجمع بين الوصف المعنوى — أى الغزل العـــذرى — الذى يعنى بتحليل النفس وجمال الروح ويبعث على الطهارة أكثر مما يعنى بالجمال الجسدى ، وبين الغزل الحسى الذى يتجه إلى وصف الجمال الجسدى ولكن كل ذلك فى حرارة وقوة تأثير .

---

(١) برزت : ظهرت ، سفرت المرأة : كشفت عن وجهها ، النقاب : ما يستتر به وجه المرأة .

(٢) حمتنا : حماه يحميه حماية : دفع عنه ، الحمى : الشىء المحظور الذى لايقرب ، ظام : أى ظامىء بمعنى عطشان .

(٣) ألا حظه : من لحظه — بفتحتين — ولحظ إليه : نظر إليه بمؤخر عينه ، الطريد : المطرود من بلده ، والمنفى عنها .

والسرى بهذا الالتزام يكون قد سار حسبما قرره النقاد فى مقاييس فن الغزل ، نجده قد سار وفق ما قرره قدامة فى هذا الفن حيث قال(١) : « فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو : ما كثرت فيه الأدلة فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون فيه من الخشونة والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ماضاد التحفظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض » .

ويقول قدامة فى معرض الحديث عن المعيب من النسيب(٢) : « ولما كان المذهب فى الغزل إنما هو الرقة واللطافة ، والشكل والدماثة ، كان مايحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة ، مقبولة غير مستكرهة ، فإذا كانت جاسية مستوخمة كان ذلك عيبا » .

ويقول(٣) : « فمن المستثقل فى الغزل : قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

إن تنسأ دارك لا أمل تذكرا وعليك منى رحمة وسلام

ومن المستخشن قول هذا الشاعر أيضا :

سلام ليت لساناً تنطقين به قبل الذى نالنى من صوته قطعا

فما رأيت أغلظ ممن يدعو على معشوقته ، حيث أجادت فى غنائها له بقطع لسانها .

---

(١) نقد الشعر ١٤٠ .

(٢) انظر نقد الشعر ٢٢٤ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٤ .

وقد أكد أبو هلال العسكرى ما قاله قدامة فقال(١) : « ينبغى أن يكون التشبيب دالا على شدة الصبابة ، وإفراط الوجد ، والتهالك فى الصبوة ويكون بريا من دلائل الخشونة والجلادة وأمارات الإباء والعزة » .

وأكد هذا المعنى أيضا أبو عبيد الله المرزبانى (ت ٣٨٤هـ) وقد نقل كل ما قاله قدامة فى هذا الشأن(٢) .

ولقد وجدنا أبا تمام يوصى البحترى بما ينبغى اتباعه فى فن الغزل ، يوصيه بأن يكثر فى النسيب من « بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق »(٣) .

ويأتى ابن رشيق فيؤكد ما قاله النقاد قبله إزاء هذا الفن من الشعر ، حيث يقول(٤) : « حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعانى سهلها ، غير كز(٥) ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الإيثار ، رطب المكسر . شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ويستخف الرصين » .

وإذا طبقنا كل هذه المقاييس على شعر الغزل عند السرى وجدناه قد وفق حيث توافرت عنده ماينبغى اتباعه تجاه هذا الفن .

هذا : وقد ألحق قدامة بالنسيب كل مايذكر بالأحبة ويشوق إليهم ، فقال(٦) : « وقد يدخل فى النسيب : والتذكر لمعاهد الأحبة ، بالرياح الهابة ،

---

(١) انظر الصناعتين ١٣٥ .

(٢) انظر الموشح على مآخذ العلماء والشعراء للمرزبانى ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٣) انظر زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى ١/١٠١ .

(٤) العمدة ٢/١١٦ .

(٥) كز : يابس .

(٦) نقد الشعر ١٤١ .

والبروق اللامعة، والحمائم الهاتفة. والخيالات الطائفة، وآثار الديار العافية، وأشخاص الأطلال الداثرة، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة، ومريض الأسف والمنازعة».

وعلى هذا يمكن ضم الشعر الذى قاله السرى الرفاء: فى «تذكر مواطن الهوى إلى فن «النسيب» عنده، وقد ذكر الثعالبى للسرى طائفة من هذا الشعر تحت عنوان «تذكر أيام الصبا ومواطن الهوى».

ويقول[1]: ما أحسن وأظرف قوله من قصيدة [من الكامل]:

أسلاسل البرق الذى لحظ الثرى ... وهنا فوشح روضه بسلاسل[2]

أذكرتنا النشوات فى ظل الصبا ... والعيش فى سنة الزمان الغافل

أيام أستر صبوتى من كاشح ... عمدا وأسرق لذتى من عاذل[3]

وقوله[4]: من أخرى [من الوافر]:

تثنى البرق يذكرنى الثنايا ... على أثناء دجلة والشعابا[5]

وأياما عهدت بها التصابى ... وأوطانا صحبت بها الشبابا[6]

---

(١) اليتيمة ٢/١٦٠.

(٢) الوهن: بفتحتين: الضعف، وشح: ألبس، وهو من الوشاح وهو شىء ينسج من أديم عريض ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها، والعاتق: موضع الرداء من المنكب، والكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

(٣) الكاشح: الذى يضمر لك العداوة، عاذل: لائم.

(٤) اليتيمة ٢/١٦٠.

(٥) تثنى البرق: عودته مرة ثانية، الثنايا: جمع ثنية وهى الطريق فى العقبة، الشعاب: جمع شعب: وهو الطريق بين جبلين.

(٦) التصابى: الشوق.

وقوله(١) : من أخرى [من الطويل] :

وكم ليلة شمرت للراح رائحاً ... وبت لغزلان الصريم مغازلا(٢)

وحليت كأسى والسماء بحليها ... فما عطلت حتى بدا الأفق عاطلا(٣)

وقوله من قصيدة يتشوق بها الموصل ونواحيها وهو بحلب(٤) [من الكامل] :

أمحل صبوتنا دعاء مشوق ... يرتاح منك إلى الهوى الموموق(٥)

هل أطرقن العمر بين عصابة ... سلكوا إلى اللذات كل طريق

أم هل أرى القصر المنيف معمما ... برداء غيم كالرداء رقيق(٦)

---

(١) اليتيمة ٢ / ١٦٠

(٢) شمرت : من التشمير وهو الإرسال ، أو شمر : هيأ، الراح : الخمر، رائح : راجع بالعشى من الرواح ، غزلان : جمع غزال ، الصريم : الليل المظلم وهو أيضاً الصبح فهو من الأضداد .

(٣) حليت الطعام: جعلته حلوا ، الحلى — بفتح فسكون — ماتتجمل به المرأة من ذهب ونحوه وجمعه حلى .

والمراد هنا: أن الكأس والسماء صار لونهما كلون حلى المرأة، وعطلت — من باب طرب — : خلا جيدها من القلائد ، وجيد عاطل: خال من الحلى .

(٤) اليتيمة ٢/١٦١ وفى الديوان ٢/٤٧٣ .

(٥) الصبوة: من صبا يصبو صبوة وصبوا : أى مال إلى الجهل والفتوة، مشوق : من شاقه الشىء فهو شائق ومشوق: أى نازعته النفس إلى الشىء، الموموق : من ومقه يمقه : أحبه .

(٦) المنيف : من أناف على الشىء : أشرف عليه ، معمم : من عمم الرجل : أى سود لأن العمائم تيجان العرب ، ويقال : عممه تعميما : ألبسه العمامة .

وقلالى الدبر التى لولا النوى ... لم أرمها بقلى ولا بعقوق(١)
محمرة الجدران ينفح طيبها ... فكأنها مبنية بخلوق(٢)
وأغن تحسب جيده إبريقه ... مادام يسفح عبرة الإبريق(٣)
يتنازعون على الرحيق غرائباً ... يحسبن زاهره كؤوس رحيق(٤)
صدرت عن الأفكار وهى كأنها ... رقراق صادرة عن الراووق(٥)
دهر ترفق بى فواقاً صرفه ... وسطا على فكان غير رفيق(٦)
فتى أزور قباب مشرفة الذرى ... فأرود بين النسر والعيوق(٧)

---

(١) قلا : من القلى — بكسر ففتح — وهو البغض ، يقال : قلاه يقليه قلى ، النوى : الفراق ، عقوق : من عق والده : عصاه .

(٢) نفح الطيب: فاح، الخلوق — بفتح فضم — . ضرب من الطيب .

(٣) أغن : الذى فى صوته غنة أى صوت من الخيشوم ، يسفح: سفح الماء . أراقه ، العبرة — بفتح فسكون — تحلب الدمع، وعبر الرجل بفتح العين و كسر الباء أى أجرى دمعه .

(٤) الرحيق : صفوة الخمر ، زاهره : من زهرت النار بمعنى أضاءت وبابه خضع .

(٥) رقراق : من ترقرق الشىء : أضاء وتلألأ ولمع ، وكل شىء له تلألؤ فهو رقراق ، الراووق : المصفاة .

(٦) ترفق : من الرفق وهو ضد العنف، الفواق بالضم. من فاق يفوق: إذا شخصت الريح من صدره و كذا ما يأخذه عند النزع فواق ، صرفه : شراب صرف : غير ممزوج .

(٧) قباب : جمع قبة وهى من البناء ، مشرفة : عالية ، الذرى : جمع ذروة وهى أعلى الشىء ، أرود : أذهب وأجىء ، العيوق — بفتح فضم مع شدة : نجم أحمر مضىء فى طرف المجزة الأيمن يتلو الثريا .

وأرى الصوامع في غوارب أكمها
مثل الهوادج في غوارب نوق[1]
حمراً تلوح خلالهـــا بيض كما
فصلت بالكافور سمط عقيق[2]
كلف تذكر قبـــل ناهية النهى
ظلمين ظل هوى وظل حـــديق[3]
فتفرقت عبراته في خـده إذ لا مجير له من التفريق

والتشبيهات تشيع هنا في ثنايا عباراته، منها : تشبيه الغيم بالرداء تشبيهاً بليغاً في قوله « برداء غيم » وتشبيه جدران القصر الحمراء التي يفوح طيبها بجدران مبنية من الخلوق وهو نوع من الطيب ، وتشبيه الجيد بالإبريق ، وتشبيه الصوامع وهي على ما ارتفع من الأرض بالهوادج المرفوعة على

---

(١) الصوامع : جمع صومعة وهي بيت عبادة للنصارى ، الغوارب : جمع غارب وهو ما بين السنام إلى العنق ، وأصله أن الناقة إذا رعت وعليها الخطام ألقى على غاربها ، والأكم : جمع الأكمة وهي هنا الموضع المرتفع عما حوله ، الهوادج : جمع الهودج : وهو شيء يوضع على ظهر البعير على شكل مربع مغطى من فوق ومحاط من جوانبه بما يستر داخله وكانت تجلس فيه النساء العرب في السفر فلا يراهن أحد .

(٢) السمط — بكسر فسكون — الخيط مادام فيه الخرز وإلا فهو سلك ، فصلت : جعل بين كل لؤلؤتين خرزة ، الكافور : الطلع ، وقيل : وعاء الطلع، للعقيق : ضرب من الفصوص .

(٣) كلف : مولع ، ناهية : من النهي — بفتح فسكون — وهو ضد الأمر أي طلب الكف عن فعل شيء ، النهى — بضم ففتح : جمع نهية ، وهي العقول .

ظهور الإبل ، ثم التشبيه الرائع لهذه الصوامع فى قوله « حمرا تلوح » البيت ، فقد شبهها وهى حمراء يلوح خلالها بياض بعقد من عقيق فصلت حباته بكافور .

ويتميز الأسلوب فى هذه القصيدة — أيضاً — بسلاسة الألفاظ ، وعذوبة التعبير ، وحلاوة الجرس ، ويتفق مع المقاييس التى سبق ذكرها فى فن الغزل .

٤ — فن العتاب

العتاب فن من فنون الشعر العربى ، تناوله بعض الشعراء قديماً ، كأبى تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، والمتنبى ، وقد تناوله السرى الرفاء ، ولكنه لم يكثر منه كغيره من الفنون الأخرى .

والعتاب : سبيل يعيد صفو الأخلاق بعد كدر ، ويؤكد الصحبة إذا ماشابها غضب ، وهو دعوة إلى التصافى إذا أصاب المودة خلل ، شريطة ألا يكثر المعاتب منه ، وشريطة أن يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، بأسلوب لين هادىء ، فإذا أكثر الشاعر منه ، أو دخل فيه المن والإجحاف ، أو الاحتجاج والانتصاف كان سبيلا إلى القطيعة والجفاء .

يؤكد ابن رشيق ذلك فيقول(١) : « العتاب — وإن كان حياة المودة ، وشاهد الوفاء — فإنه باب من أبواب الخديعة ، يسرع إلى الهجاء ، وسبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء ، فإذا قل كان داعية الألفة ، وقيد الصحبة ، وإذا كثر خشن جانبه ، وثقل صاحبه » .

ويبين ابن رشيق طرائق العتاب قائلا(٢) : « وللعتاب طرائق كثيرة ،

---

(١) العمدة : ٢/١٦٠ (٢) العمدة ٢/١٦٠

وللناس فيه ضروب مختلفة ؛ فمنه مايمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه مايدخله الاحتجاج والانتصاف ، وقد يعرض فيه المن والإجحاف، مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف » .

والعتاب إذا كثر ثقل على صاحبه — كما قال ابن رشيق — ولهذا أوصى الشعراء بعضهم بعضاً بتقليل العتاب ، فمن مليح ماجاء فى ذلك قول سعيد بن حميد يعاتب صديقاً له على كثرة العتاب(١) :

أقلل عتابك فالبقاء قليل   والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه   إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدة   ولكل حال أقبلت تحويل

ولقد دعا أبو المحدثين بشار بن برد إلى تقليل العتاب حين قال :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه(٢)

وكان السرى الرفاء مقلا فى عتابه ، جارياً على مايتطلبه هذا الفن من مقاييس . وقد وجه عتابه إلى أصدقائه وأحبائه . ولنسمع إليه وهو يقول من قصيدة(٣) له يمدح فيها سلامة بن فهد ويعاتبه ويهنئه بعيد الفطر [من المتقارب] .

---

(١) أنظر العمدة ١٦٦/٢   (٢) العمدة ١٦٧/٤
(٣) اليتيمة ١٦٦/٢ وديوان السرى ٢١٢/٢

إلى كم أحبر فيك المديح ويلقى سواى لديك الحبورا
لهمت عرائسه أن تصد وهمت كواكبه أن تغورا
أتسلمنى بعد أن رحت لى على نوب الدهر جاراً مجيراً ؟
وأسفر خطى لما آراك يبنى وبين الليالى سفيرا
سأهدى إليك نسيم العتاب وأضمر من حر عتب سعيرا
معان إذا ظهرت دبجت بطون المديح له الظهورا
تبرج للفكر أنساً به وطورا تخفر منه نفورا

وقال فى معناه [من الوافر] :

أبا الهيجاء أصبحت القوافى تخب إليك حجا واعتمارا[٢]
عتاباً كالنسيم جرى لعتب يضرم فى الحشا منى استعارا[٣]

نجد فى ذلك العتاب الأسلوب الهادىء ، الرقيق السهل ، مع روعة فى الأداء ، وإبداع فى التصوير ، واختيار للألفاظ التى تتناسب مع رقة العتاب الذى جعله كالنسيم على قلب المعاتب ، وإن كان يحز فى قلب قائله، وهذا ما يقتضيه أسلوب العتاب[٤] .

وقال السرى[٥] يعاتب صديقاً أفشى له سراً [من الطويل] :

---

(١) اليتيمة ١٦٦/٢
(٢) تخب : من الخبب وهو ضرب من العدو وبابه رد .
(٣) يضرم : يلهب ، من ضرمت النار : التهبت ، الحشا : بفتحتين : ما انضمت عليه الضلوع ، استعارا : من استعرت النار بمعنى توقدت .
(٤) أنظر البلاغة العربية تاريخاً وقاعدة وتطبيقاً ٧١/١
(٥) اليتيمة ١٦٦/٢

رأيتــــك تبرى للصديق نوافذاً
عدوك من أمثالها الدهر آمن(1)
وتكشف أسرار الأخلاء مازحاً
ويارب مزح راح وهو ضغائن
سأحفظ ما بيني وبينـك صائنـاً
عهودك إن الحر للعهـد صائن
وألقـاك بالبشر الجميـل مداهنـاً
فلي منـك خـل ما عرفت مداهن
أنم بما استودعته من زجاجة ترى الشيء فيها ظاهرا وهو باطن

وقال فى مثل ذلك(2) [من الوافر] :

ثنتنى عنك فاستشعرت هجراً خلالا فيك لست لهـا براض
وأنك كلما استودعت سراً أنم من النسيم على الرياض

وهو فى هذا العتاب أيضاً رقيق ، لين القول ، سهل العبارة ، يطلب الإبقاء على المودة ، ويصون الحب بينه وبين صديقه ، وإن تضمن توبيخاً دون تعنيف ، ومعارضة لما بدر منه دون جفوة فى القول .

ومثل مامر قوله من قصيدة(3) [من الكامل] :

لا تأنفن من العتاب وقرصـه فالمسك يسحق كى يزيد فضائلا
ما أحرق العود الذى أشممته خطأ ولا غم البنفسج باطلا(4)

---

(1) تبرى : تنحت ، من البراية وهى النحاتة ، وهذه كناية عن إفشاء السر ، لأنه يلزم من نحت النافذة إخراج مابداخلها من أسرار .

(2) اليتيمة ٢/١٦٧

(3) اليتيمة ٢/١٦٧

(4) غم : غطى ، البنفسج : زهر طيب الرائحة .

وهنا يأتى فى البيت : الأول من هذين البيتين بتشبيه ضمنى رائع(١) ، حيث أتى بحكم فى الشطر الأول وأراد فى الشطر الثانى أن يدلل على صحته وإمكان وجوده ، فكأنه أتى بدعوى ومعها دليلها .

ولكن السرى قد خرج فى بعض عتابه عن رقته وهدوئه إلى التعنيف والتوبيخ الممض ، وذلك فى مثل قوله(٢) [من البسيط] :

لسانك السيف لا يخفى له أثر
وأنت كالصل لا تبقى ولا تذر(٣)

سرى لديك كأسرار الزجاجة لا
يخفى على العين منها الصفو والكدر

فاحذر من الشعر كسراً لا انجبار له
فالزجاجة كسر ليس ينجبر

حيث شبه لسانه بالسيف فى أثره الضار ، وشبهه بالصل - أى الحية - التى لا ينفع معها الرقية ، وهذان تشبيهان يدلان على أن مخاطبه ضرره أكيد ، ومحبته زائلة ، والسرى بهذا العتاب يمهد للقطيعة والجفوة ، ويسير به إلى طريق الهجاء ، ثم يهدده ويحذره فى البيت الثالث بتوجيه شعر

---

(١) والتشبيه الضمنى هو : تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به فى صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان فى التركيب ، وهذا النوع يؤتى به ليفيد أن الحكم الذى أسند إلى المشبه ممكن — انظر البلاغة الواضحة ٤٧

(٢) اليتيمة ٢/١٦٧

(٣) الصل : بكسر الصاد : الحية التى لاتنفع معها الرقية ، تذر : تترك .

الهجاء إليه ، فهو سلاحه الذى يضير به أعداءه ، وإذا وجه إليه شعر الهجاء كانت العداوة التى لا عودة بعدها إلى المحبة ، وأصبح الحال بينهما كحال الزجاجة التى أصابها كسر فلا جبر لها ، وهذا تشبيه ضمنى أيضا ، أخذه من تشبيه صريح هو قول الشاعر :

إن القلوب إذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

وقد تضمنت الأبيات الثلاثة تشبيهات لطيفة لا تخفى على القارىء . .

والعتاب — كما سبق — هو طلب الإبقاء على المودة ومراعاة المحبة ، وفيه تربيخ ومعارضة لا يجوز معها التعنيف والخشونة ، وإلا كان سببا للقطيعة والجفوة .

ولقد كان للمتنبى عتاب شديد لأخاص الناس إليه ، وأحبهم إلى قلبه ، تظهر فيه الغلظة والخشونة ، والكبر والأنفة ، مما يؤدى إلى المبادرة بالعداء .

يقول ابن رشيق[1] فى معرض عتاب المتنبى لسيف الدولة : « وأما أبو الطيب فكان فى طبعه غلظة » وفى عتابه شدة ، وكان كثير التحامل ، ظاهر الكبر والأنفة ، وما ظنك بمن يقول لسيف الدوله :

يا أعـــدل الناس إلا فى معاملتى
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيـــذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

(١) انظر العمدة ٢/١٦٤ ، ١٦٥

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الناس جـــراها ويختصم
وجاهل مده فى جهله ضحكى   حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن أن الليث يبتسم

فهذا الكلام فى ذاته فى نهاية الجودة ، غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية فى القبح والرداءة ، وإنما عرض بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة ، ويعارضونه فى أشعاره ، والإشارة كلها إلى سيف الدولة ، ثم قال بعد أبيات :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة   لو أن أمركم من أمرنا أمم
وإن كان سركم ما قال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعـــيتم ذاك معرفة
إن المعارف فى أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنـا عيبا فيعجزكم   ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى
أنا الثرياء وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنـــده الديم
أرى النوى يقتضينى كل مرحلة
لا تستقـــل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا   ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وإنما قال أولا : «ليحدثن لسيف الدولة الندم» ثم بدله ، وليس هذا عتابا

لكنه سباب ، وبسبب هذه القصيدة كاد أن يقتل عند انصرافه من مجلس إنشادها ، وهذا الغرور بعينه » .

وإنا لنرى السرى يخلط فى بعض عتابه بين الرقة واللين وبين الجفاء والخشونة ، بصورة لا تصل إلى خشونة المتنبى وذلك فى مثل قوله(١) [من البسيط] :

أروم منك ثمارا لست أجنيها
وأرتجى الحال قد حلت أواخيها

أستودع الله خلا منك أوسعه ودا ويوسعنى غشا وتمويها

كأن سرى فى أحشائه لهب فما تطيق له طيا حواشيها

قد كان صدرك للأسرار جندلة ضنينة بالذى تخفى نواحيها(٢)

فصار من بعد ما استودعت جوهرة
رقيقــة تستشف العين ما فيها

فقوله « أروم منك ثمارا لست أجنيها » و « يوسعنى غشا وتمويها » و « كأن سرى فى أحشائه لهب فما تطيق له طيا حواشيها » مما يثقل على المعاتب ، ويدعوه إلى الجفاء والقطيعة .

ولاحظنا الصور البيانية الجيدة ، ومنها الاستعارة فى قوله : « ثمار » والمقصود منها المعاملة الحسنة التى منها « كتمان السر » ، والتشبيهات : كتشبيه سره باللهب الذى لا يتحمله قلب المعاتب ، وتشبيه الصدر بالجندلة التى تخفى ما بداخلها ، وذلك فى حالة كتمانه السر ، وقابل ذلك بتشبيه

---

(١) اليتيمة ١٦٧/٣

(٢) الجندلة : الحجارة ، ضنينة : بخيلة .

صدره بالجوهرة الرقيقة التي يرى مابداخلها ، وذلك فى حالة إذاعته للسر ، وهذه من المقابلة الحسنة .

ولكن العتاب عند السرى فى غالبه يتسم بالرقة واللين ، والعذوبة والسلاسة ، والاستعطاف والاستئلاف ، من ذلك قوله[1] — يمدح أبا الفوارس سلامة بن فهد ويعاتبه [من السريع] :

جرى ابن فهد سابقا فى العلا   أكفاءه والسبق حظ العتاق

فعاش فى عيش منيع الحمى   منتشر الظل فسيح الرواق

وكم أردت الهجر لكننى   وجدته مرا كريه المذاق

عرابد عندك أرمى بها   بين صبوح دائم واغتباق[2] ؟

وتهمة فى الشعر من جاهل

ما زال فيه عاجزا عن لحاق ؟[3]

لقد أتاح الدهر لى شقوة   إذ خصنى منك بهذا الشقاق

وكل أخلاقك مرضية   فما لخلق ذمها من خلاق

ومن قصيدة أخرى يمدحه ويعاتبه[4] [من الوافر] :

أذم إليك عادية الفراق   وأحمد سافح الدمع المراق[5]

---

(١) ديوانه ٢/٤٨٦

(٢) عرابد : جمع عربدة وهى سوء خلق الشارب مع نديمه ، الصبوح : الشرب فى الغداة ، والغبوق : الشرب فى المساء .

(٣) فى البيتين استفهام حذفت منهما الهمزة .

(٤) ديوانه ٢/٤٥٢

(٥) عادية الفراق : شر الفراق وظلمه .

هل الأيام مطلقة وثاقى ... فأرحل أو منفسة خناقى ؟
وأكثر ما أقول سقى ابن فهد ... حيا كنداه منحل النطاق(١)
رمانى بامتهان فل غربى ... وأطمع كل وغد فى لحاقى(٢)
وأسرف فى الوداد على التنائى ... فحين دنوت أسرع فى الشقاق
وسرت فكنت بدر التم أوفى ... به طول المسير على المحاق(٣)

ولا تخفى على القارىء سمات هذا الأسلوب الذى توفرت فيه متطلبات هذا اللون من الشعر ، فقد اتسم بعباراته الرقيقة ، ومعانيه القريبة ، وألفاظه السهلة ، وتشبيهاته واستعاراته اللطيفة ، وقد انتثرت فى ثناياه بعض الأصباغ البديعية ، كالطباق بين « صبوح واغتباق » ، والجناس الناقص بين « الفراق والمراق » ، والملحق بالجناس بين « خلق وخلاق » ، وما أجمل الكناية فى قوله « فل غربى » وهى كناية عن الضعف والهزيمة .

ومما تجدر الإشارة إليه : أن العتاب يختلط عند بعض النقاد بما يسمى « الاقتضاء والاستنجاز (٤) ولكن البعض الآخر يفرق بينهما ، فها هو ذا ابن رشيق يعقد بابا يسميه « باب الاقتضاء والاستنجاز » غير باب « العتاب » ويقول فى معرض بيان ما يستوجبه الاقتضاء ، وتوضيح الفرق بينه وبين

---

(١) منحل : حل العقدة : فتحها فانحلت ، والنطاق : شقة من ملابس النساء ، الندى : الكرم ، حيا : مطر .

(٢) فل : من فل السيف فانفل : أى كسره فانكسر ، غرب : حد ، وغرب كل شىء حده ، وفل غربى كناية عن الضعف .

(٣) المحاق — بضم الميم — : ثلاث ليال من آخر الشهر .

(٤) الاقتضاء : طلب الحاجة ، والاستنجاز : طلب إنجاز الشىء ، أى طلب قضائه .

العتاب — يقول — : حسب الشاعر أن يكون مدحه شريفاً ، واقتضاؤه لطيفاً ، وهجاؤه إن هجا عفيفاً ؛ فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان ، وداعية القطيعة والهجران ، وقوم يدرجون العتاب في الاقتضاء ، والاقتضاء في العتاب ، وأنا أرى غير هذا المذهب أصوب ، فالاقتضاء طلب حاجة ، وباب التلطيف فيه أجود ؛ فإن بلغ الأمر العتاب فإنما هو طلب الإبقاء على المودة والمراعاة ، وفيه توبيخ ومعارضة لا يجوز معها بعد الاقتضاء ، إلا أن الناس خلطوا هذين البابين وساووا بينهما »(١) .

ويبين ابن رشيق : أن من أحسن الاقتضاء قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع	لك الحسب المهذب والسناء
خليل لا يغيره صباح	عن الخلق الجميل ولا مساء
فأرضك كل مكرمة بنتها	بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوماً	كفاه من تعرضه الثناء
تباري الريح مكرمة وجوداً	إذا ما الكلب أحجره الشتاء

فأنت ترى هذا الاقتضاء كيف يلين الصخر ، ويستنزل القطر ، ويحط العصم إلى السهل »(٢) .

والاقتضاء بهذا المعنى يتضمن المدح بالفضائل النفسية والشجاعة والكرم والخلق والشرف والحسب فضلاً عن تضمنه طلب الحاجة .

---

(١) العمدة ٢/١٥٨

(٢) العمدة ٢/١٥٨

٥ — فن الوصف

وفن الوصف من الفنون الشعرية التى برع فيها بعض الشعراء قديما وحديثا ، وكل يصف ما يقع تحت بصره ، وما يطرق سمعه ، وما يحبه من مشروب أومأكول ، وما يلمسه فى بيئته ، ولذا اختلفت مناحى الشعراء فى الوصف حسب البيئة التى يعيش فيها ، وقد تعمق بعضهم فى وصف شىء بعينه ، فاشتهر به ، حتى أصبح علما فى وصفه .

« أما نعات الخيل فامرؤ القيس ، وأبو دؤاد ، وطفيل الغنوى ، والنابغة الجعدى ، وأما نعات الإبل فطرفه فى معلقته من أفضلهم ، وأوس بن حجر وكعب بن زهير ، والشماخ ، وأكثر القدماء يجيد وصفها ، لأنها مراكبهم ، وأما الحمر الوحشية والقسى فأوصف الناس لها الشماخ ، شهد له بذلك الحطيئة والفرزدق ، وهذان يجيدان صفات الخيل والقسى أيضا والنبل ، وأما الخمر فمن أوصاف الأعشى والأخطل وأبى نواس وابن المعتز ، ولأبى نواس أيضا وابن المعتز الصيد والطرد ، فما شئت من هذه الأوصاف فالتمسها حيث ذكرت »(١)

وهكذا نرى الشعراء يصفون ما فى بيئتهم . وما يقع تحت بصرهم ، وكلما وجدت أشياء مستحدثة وجد لها من الشعراء من يصفها ، ومن هنا تنوعت وتعددت الأوصاف .

ومقياس جودة الوصف هو — كما قال أبو هلال العسكرى — : مايستوعب أكثر الموصوف ، حتى كأنه — أى الوصف — يصور الموصوف لك فتراه نصب عينك »(٢)

---

(١) العمدة ٢/٢٩٦

(٢) الصناعيتين ١٣٤

وأحسن الوصف — كما قال ابن رشيق — « ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع[1] » .

وقد قال قدامة — فى بيان الوصف الجيد — : « الوصف : إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، ولما كان وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم وصفا من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه ، وأولاها حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحس بنعته[2] » .

وأصل الوصف : الكشف والإظهار ، يقال قد وصف الثوب الجسم ، إذا نم عليه ولم يستره (٣)

والسرى الوفاء قد أجاد فى فن الوصف إجادة أظهرت فضله فيه ، وأبانت عن شاعريته ، وإنى لأعده من أحسن الشعراء الذين تناولوا ألوانا عديدة من الوصف ، وبرعوا فى الكشف عن الموصوف ، بأسلوب يتلاءم مع ما يصفه ، ويسير حسبما قرره النقاد من مقاييس لجودة هذا الفن .

ولنذكر من شعره نماذج فى الوصف يتبين من خلالها مدى إجادته وبراعته .

---

(١) العمدة ٢/٢٩٦

(٢) نقد الشعر ١٣٤

(٣) أنظر العمدة ٢/٢٩٥

ما أخرج له فى الربيع وآثاره وأنواره وأزهاره

من ذلك قوله(١) [من البسيط] :

أما ترى الجو يجلى فى ممسكة
والأرض تختال فى أبرادها القشب(٢)

إذا ألح حسام البرق مؤتلقا
فى الومض جد خطيب الرعد فى الخطب(٣)

والريح وسنى خلال الروض وانية
فما يراع لها مستيقظ الترب(٤)

وما أجمل الاستعارة المكنية فى قوله « والأرض تختال » والاستعارة التصريحية فى « أبرادها » ويقصد بها النبات والأزهار فى الربيع ، وما أروع التشبيه البليغ فى قوله « حسام البرق » و « خطيب الرعد » وقد أضيف فيهما المشبه به إلى المشبه ، مع اقتران التشبيه بالاستعارة المكنية فى لفظى « البرق » و « الرعد » حيث شبههما بإنسان ثم حذف الإنسان ورمز له بشىء من لوازمه وهو « ألح » و « جد » ومثلها فى « الريح » وفى « الترب » .

(١) اليتيمة ٢/١٦٧

(٢) ممسكة : يقد بها أزهارا معطرة ، أبراد : جمع برد - بضم فسكون - وهو من الثياب ، القشب : جمع قشيب : أى جديد . تختال : تتعاجب أو تعجب بمنظرها .

(٣) حسام : سيف ، مؤتلق : لامع ، ألح : أى ألحف فى السؤال ، الومض : اللمعان .

(٤) وسنى : من وسن يوسن وسنا فهو وسنان أى نعس ، وانية : من الونى وهو الضعف والفتور والكلال والإعياء ، يراع : يخاف ، الترب : التراب

وقال السري من قصيدة(١) [من الرمل] :

وحدائق يسبيك وشي برودها حتى تشبهها سبائب عبقر(٢)

يجري النسيم خلالها وكأنما غمست فضول ردائه في العنبر(٣)

باتت قلوب المحل تخفق بينها بخفوق رايات السحاب الممطر(٤)

من كل نائي الحجرتين مولع بالبرق داني الظلتين مشهر(٥)

تحدى بألسنة الرعود عشاره فيسير بين مغرد ومزمجر

طارت عقيقة برقه فكأنما صدعت ممسك غيمه بمعصفر

وقال في وصف الروض وقوس قزح(٦) [من مجزوء الرمل] :

إن عن لهو أو سنح فاعمد إلى الراح ورح

رضيت أن أحظى بعز زالكأس والحظ منح

وصاحب يقدح لي نار السرور بالقدح

في روضة قد لبست من لؤلؤ الطل سبح

---

(١) اليتيمة ٢/١٦٨

(٢) يسبي : من السبي وهو الأسر ، الوشي : النقش ، البرود . جمع برد وهو من الثياب ، عبقر : موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوته فقالوا : عبقري .

(٣) غمسه في الماء : مقله ، فضول ردائه : أي ذيل ردائه .

(٤) المحل ـ بفتح فسكون ـ الجدب ، تخفق : تضطرب .

(٥) الحجرة : الدار ، الظلة : أول سحابة تظهر ، مشهر : من شهر سيفه أي سله ، أو من الشهرة وهي وضوح الأمر .

(٦) اليتيمة ٢/١٦٩

يألفنى حمامها | مغتبقا ومصطبح(١)
أو قطه بالعزف أو | يوقظنى إذا صدح(٢)
والجو فى ممسك | طرازه قوس قزح
يبكى بلا حزن كما | يضحك من غير فرح

وقال فى وصف الروض وقوس قزح أيضا(٣) [من المتقارب] :

هفا طربا فى أوان الطرب | فأنخب أقداحه كالنخب
وغنى ارتياحا إلى عارض | يغنى وعبرته تنسكب
غيوم تمسك أفق السماء | وبرق يسكتبه بالذهب
وخضراء ينثر فيها الندى | فريد ندى ما له ثقب
فأنوارها مثل نظم الحلى | وأنهارها مثل بيض القضب
حللت بها مع ندامى سلوا | عن الجد واشتهروا باللعب
وأغنتهم عن بديع السماع | بدائع ما ضمنته الكتب
وأحسن شيء ربيع الحيا | أضيف إليه ربيع الأدب

وهو فى الوصف للروض وقوس قزح يظهر لنا حبه لمظاهر الطبيعة

---

(١) مغتبقا : من الغبوق وهو الشرب بالعشى ، ومصطبح من الصبوح وهى الشرب صباحا .

(٢) صدح صاح .

(٣) ديوان السرى ١/٣٠١

الساحرة ، التى يطيب له فيها شرب الخمر فى أحضانها ، وبين أزهارها وأشجارها ، وعلى تغريد طيورها ، وفى جوها الملبد بالغيوم ، وفى وسط أمطارها وأصوات رعدها ، وأضواء برقها ، وبين ندامى سلوا عن الجد وأخلدوا للعب .

وقال فى وصف البرد(١) [من مجزوء الكامل] :

يوم خلعت به عذارى	فعريت من حلل الوقار
وضحكت فيه إلى الصبا	والشيب يضحك فى عذارى
متلون يبدى لنا	طرفا بأطراف النهار
فهواؤه سلب الردا	ء وغيمه جافى الإزار
يبكى فيجمد دمعه	والبرد يكحله بنار

والسرى فى وصفه للمناظر الطبيعية يصور ويرسم ، ويجسم لك بألوان من الخيال المناظر التى أراد كشفها وإبرازها وتشعر أنه قد صدق فى تجربته الشعرية ، التى هى إعجاب بمشاهد الطبيعة الحية ، إعجاب جعله يصدر عن انفعالات ، وهو فى هذه الأوصاف يأتى فيبرز الموصوف من جوانبه الحسية التى توضحه وتحكيه ، وكأنه ماثل أمام أعيننا ، وهو فى هذا أيضاً كالمصور يرسم بريشته الصورة بما فيها من ملامح وسمات ، حتى تظهر للعيان ، ويدركها الحس ، ويكثر السرى من الصور البيانية ، التى تدل على سعة خياله ، ورحابة أفقه ، كل ذلك فى أسلوب يذوب رقة وسلاسة ، وسهولة وليناً ، وهذا مايتناسب مع وصف المناظر الطبيعية .

والسرى فى وصفه للطبيعة يشابه شعراء الأندلس الذين اشتهروا بهذا

---

(١) اليتيمة ٢/١٧٠

اللون من الشعر، وبرعوا فيه وكان الشاعر منهم يصدر فى شعره عن امتزاج أحاسيسه بالطبيعة ، وتلوين الواقع بمشاعره .

ولنقرأ معاً قول ابن شهيد(١) الشاعر الأندلسى فى وصفه لروضة(٢) :

وروض كساه الطل وشيا مجددا
فأضحى مقيما للنفوس ومقعداً(٣)
إذا صافحته الريح خلت غصونه
رواقص فى خضر من العصب ميداً(٤)
إذا انسكب الماء على النبت خلته
وقد كسرته راحة الريح مبرداً
وإن سكنت عنه حسبت صفاءه
حساماً صقيلا صافى المتن جرداً
وغنت به ورق الحمائم حولنا
غناء ينسيك الغريض ومعبداً(٥)

وابن شهيد فى خياله وتصويره هنا يشابه السرى فى وصفه السابق .

---

(١) هو أبو عامر بن أبى مروان بن شهيد ، عاش فى أزهى عصور الأدب فى الأندلس ، ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفى سنة ٤٢٦ هـ كان من أعلم الناس باللغة والأدب ، وكان بارعاً فى النظم والنثر ، يمتاز بطلاقة التعبير، وطرافة الخيال — انظر الأساس فى النقد والبلاغة ٢/١٥٨

(٢) الأساس فى النقد والبلاغة ٢/١٥٨

(٣) الطل: الندى ، الوشى: نقش الثوب ، والمراد هنا: أزهار الروض.

(٤) خضر: جمع أخضر ، العصب : ثياب يمنية موشاة ، ميدا: مهتزة .

(٥) الغريض ومعبد : مغنيان مشهوران بجودة الغناء وحلاوة الصوت .

وقال السرى فى وصف روضة(١) أيضاً [من الطويل] :

لنا روضة فى الدار صيغ لزهرها
قلائد من حمل الندى وشنوف

يطوف بنا منها إذا ما تبسمت
نسيم كعقل الخالدى ضعيف

وندمان صدق نشره ونظامه
ربيع إذا قارضته وخريف

وقد رق ثوب الغيم حتى كأنما
تنشر دون الأفق منه شفوف

فزر مجلساً قد شرف الله أهله
وفضلهم إن الأديب شريف

وخصائص هذا النموذج كخصائص النموذج السابق فى الوصف .

وصفه للشراب

قال السرى يصف باقى زجاجة الكأس من أعلاها إذا كانت ناقصة من الشراب(٢) [من الطويل] :

أعاذل إن النائبات بمرصد ... وإن مرور المرء غير مخلد

إذا مامضى يوم من العيش صالح ... فصله بيوم صالح العيش من غد

وحالية من حسنها وجمالها ... وإن برزت عطل الشوى والمقلد(٣)

---

(١) اليتيمة ٢/١٧٧

(٢) اليتيمة ٢/١٧٠

(٣) الشوى من الإنسان : أطرافه ، والمقلد : موضع القلادة .

تعاطيك كأساً غير ملأى كأنما فواقعها أحداق درع مزرد
كأن أعاليها بياض سوالف يلوح على توريد جيب مورد

وقال من قصيدة يصف فيها يوماً شرب فيه بقطربل ، ويداعب رجلا إسمه إدريس(١) : (من المتقارب) :

ولم أنس يومى بقطربل وليلى على القفص أو عكبرا(٢)
وملآن من عبرات الكروم كأن على فمه عصفرا(٣)
إذا قربته أكف السقاة من الكأس قهقه واستعبرا
تروحه عذبات الفدام بريا النسيم إذا ما جرى(٤)
وريم إذا رام حث الكؤو س قطب للتيه واستكبرا(٥)
وجرد من طرفه خنجراً ومن نون طرته خنجرا(٦)
ترى ورد وجنته أحمرا وريحان شاربه أخضرا(٧)

ولا يخفى عليك كثرة التشبيهات والاستعارات فى وصفه السابق ،

---

(١) ديوانه ٢/٢٤٤

(٢) قطربل : اسم مكان يقصده الناس للهو والقصف ، والقفص وعكبرا : مكانان للهو أيضاً ، وهذه الأماكن كانت قريبة من بغداد .

(٣) العصفر : صبغ .

(٤) تروحه : تطيبه ، العذبات : الأطراف الدقيقة ، الفدام : مايوضع فى فم الإبريق ليصفى به مافيه .

(٥) التيه : الكبرياء والزهو .

(٦) الخنجر : سكين كبير ، الطرة : أعلى الجبين .

(٧) الوجنة : ما ارتفع من الخدين ، الريحان : نبت طيب الرائحة .

وكذلك الأصباغ البديعية ، مثل الملحق بالجناس ، بين ريم ورام ، ومراعاة النظير بين الطرف ، والطرة ، والوجنة .

وقال يصف ليلة سكر فيها بقطربل ويصف الشمع(١) (من المتقارب) :

كستك الشبيبة ريعــانها ... وأهدت لك الراح ريحانها
فدم للنــديم على عهده ... وغاد المدام وندمانها
فقد خلع الأفق ثوب الدجا ... كما نضت البيض أجفانها
وساق يواجهنى وجهــه ... فتجعله العين بستانها
يتوج بالكأس كف النديم ... إذا نظم الماء تيجانها
فطوراً يوشــح ياقوتها ... وطوراً يرصع عقيانها(٢)
رميت بأفراسها حلبـة ... من اللهو ترهج ميدانها
فلما دجا الليـل فرجتـه ... بروح تحيــف جثمانها
بشمع أعير قدود الرماح ... وسرج ذراها وألوانها

وقال فى مثل ذلك(٣) [من الطويل] :

دعانا إلى اللهو داعى السرور ... فبتنا نبوح بما فى الصدور
وطافت علينا بشمس الدنا ... ن فى غسق الليل شمس الخدور
كأن الكئوس وقد كللت ... بفضلاتهن أكاليل نور
صوب من الوشى مزرورة ... يلوح عليها بياض النحور

وقال : — وقد شرب ليلة فى زورق(٤) [من الطويل] :

ومعتدل يسعى إلى بكأسه ... وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك

---

(١) ديوانه ٢/٧٣٢
(٢) العقيان : الذهب الخالص .
(٣) اليتيمة ٢/١٧٠
(٤) المصدر السابق ٢/١٧١

وقد حجب الغيم السماء كأنما يزر عليها منه ثوب ممسك
ظللنا فبث الوجد والكأس دائر ونهتك أستار الهوى فتهتك
ومجلسنا فى الماء يهوى ويرتقى وإبريقنا فى الكأس يبكى ويضحك

والسرى فى شعره الذى يصف به الخمر . وشعره الذى يستهدى به الشراب(١) ، يشير إلى أنه كان شغوفاً بشرب الخمر مضيعاً وقته فى شربها، مما يدل على انعدام الوازع الدينى عنده ، وإلا ارتدع عن مثل هذا .

شعره فى الاستزارة(٢) ووصف آلاتها

قال يدعو صديقاً له ، ويصف غرفة له فى الموصل مشرفة على الربض(٣) الأسفل والنهر ، ويصف ما عنده من قدر ، وكانون ونار ، وشراب(٤) [من المتقارب] :

لنا غرفة حسنت منظرا وطابت لسكانها مخبرا
ترى العين من تحتها روضة ومن فوقها عارضاً ممطرا
وينساب قدامها جدول كما ذعر الأيم أو نفرا
وراح كأن نسيم الصبا تحمل من نشرها العنبرا
وعندى علق قليل المكاس وندمان صدق قليل المرا(٥)

---

(١) له شعر فى استهداء الشراب — انظر اليتيمة ٢/١٧٥
(٢) الاستزارة : طلب الزياره .
(٣) الربض — بفتحتين — ماحول المدينة .
(٤) اليتيمه ٢/١٧٦
(٥) العلق : النفيس ، المكاس : المماكسة ، المرا : أى المراء وهو المجادلة .

ودهماء تهدر هدر الفنيق إذا ما امتطت لهبا مسعرا(١)
تجيش بأوصال وحشية رعت زهرات الربا أشهرا
كأن على النار زنجية تفرج ثوباً لها أصفرا
وذو أربع لا يطيق النهوض ولا يألف السير فيمن سرى

وقال يدعو صديقاً له ويصف كانون نار(٢) (من المنسرح):

يوم رذاذ ممسك الحجب يضحك فيه السرور عن كثب
ومجلس أسبلت ستائره على شموس البهاء والحسب
والتهبت نارها فمنظرها يغنيك عن كل منظر عجب
إذا ارتمت بالشرار واطردت على ذراها مطارد اللهب
رأيت ياقوتة مشبكة تطير عنها قراضة الذهب
طافت بها الكأس وهى مترعة مبيضة العارضين بالحبب
فصر إلى المجلس الذى ابتسمت فيه رياض الجمال والأدب

ودعوته الأصدقاء إلى هذه المجالس ينبيء عن حبه للمرح والتسلية، وضياع بين الشرب واللهو والعبث.

وتميزت هذه القطعة أيضاً باستعارات رائعة مثل الاستعارة المكنية فى قوله « يضحك فيه السرور »، والاستعارة التصريحية فى « ستائر » و « ياقوتة مشبكة ».

---

(١) الشاة الدهماء: الحمراء الخالصة الحمرة، تهدر: من هدر البعير: ردد صوته فى حنجرته، والمصدر منه هدير، ولذا فهدر الفنيق على غير القاعدة، الفنيق: الفحل المكرم.

(٢) ديوانه ١/٣٦٥

وقال السرى فى وصف الديك(١) [من الكامل] :

كشف الصباح قناعه فتألقا   وسطا على الليـل البهيم فأطرقا
وعلا فلاح على الجدار موشحا   بالوشى توج بالعقيق وطوقا
مرخ فضول التاج فى لباته   ومشمر وشيا عليه منمقا

وقال فى وصف البراغيث(٢) [من الرجز] :

وليلة من نقمات الدهر   قطعتها نزر الكرى والصبر
مكلم الظهر جريح الصدر   مقسما بين أعاد خزر
كمغب إذا عاينتها وشقر   كأنها آثارها فى الأزر

وقال فى وصف مزين حاذق(٣) [من المتقارب] :

هل الحذق إلا لعبد الكريم   حوى فضله حادثاً عن قديم
إذا لمع البرق فى كفه   أفاض على الراس ماء النعيم
جهول الحسام ولكنه   يروح ويغدو بكفى حليم
له راحة سيرها راحة   تمر على الرأس مر النسيم
نعمنا بخدمته منذ نشا   فنحن به فى نعيم مقيم

وللسرى أوصاف أخرى غير ماتقدم ، فقد وصف الشمعة ، ووصف الهلال ، ووصف الطبيب ، ووصف الفقاع والقدر ، والحمل المشوى ، وكلاب الصيد ، والريحان ، وطبل العزف ، وغير ذلك من الأوصاف ، وكلها تتميز بطلاقة التعبير ، وطرافة الخيال ، ويحشد فيها كثيراً من تشبيهاته

---

(١) اليتيمة ٢/١٧٩
(٢) اليتيمة ٢/١٧٩
(٣) اليتيمة ٢/١٨٢

الجميلة ، واستعاراته الجيدة وأصباغه البديعية المقبولة مع سلاسة فى التعبير، وروعة فى الأداء .

هذا : ومما ينبغى أن يذكر هنا : أن فن الوصف يتنوع أسلوبه بتنوع الموصوف ، فإن كان وصفاً للحروب ، والجيوش ، والحوادث المثيرة ، كالعواصف المجتاحة ، والبراكين الغامرة ، والزلازل المدمرة كان الأسلوب قوياً ، جزلا ، وإن كان وصفاً لمنظر جميل ، كوصف الربيع وآثاره ، والروضة وزهورها، احتاج الأسلوب إلى سهولة ورقة ولين(١)، وقد كان السرى من الشعراء الذين جاء شعرهم فى الوصف موافقاً لما يتطلبه الموصوف من مقاييس ، فأعطى كل وصف ما يناسبه من الأساليب .

---

(١) أنظر الأساس فى النقد والبلاغة ١٥٦/٢

٦ – فن الرثاء

وقد تناول السرى الرفاء فن الرثاء ، وذلك بصورة أقل بكثير من تناوله لفنون المدح والهجاء ، والوصف والغزل ، ولعل قلة الرثاء عنده ترجع إلى أنه كان مولعا بالطرب والأنس وشرب الخمر ، والمجون ، وهذه أمور تدل على أن نفسيته تكره ذكر الموت وما ينغص على حياته طربها وأنسها ، ولذلك نرى رثاءه غالبا ما يخلو من العاطفة الصادقة ، والانفعال التام ؛ حيث تكلف ذلك فى قصائد عديدة ، والتكلف لا يدل على الصدق والتجربة الشعرية ، اللهم إلا رثاء أبيه ، الذى تأثر بموته تأثرا قويا ، فانفعل بالفاجعة ، وعاش تجربتها ، فصدر شعره عن تجربة وعاطفة صادقين .

وشعر الرثاء عنده كثيرا ما يبدأ بشكوى الزمان . وذكر ما فيه من خطوب ومصائب ، ثم يليها ذكر فضائل المرثى النفسية من كرم وشجاعة وشرف وسؤدد ونحو ذلك .

وليس بين الرثاء والمدح فرق ؛ إلا أن الشاعر يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود به ميت ، مثل « كان » أو « عد منابة كيت وكيت » ومايشاكل هذا ليعلم أنه ميت(١) .

فمن رثائه قوله من قصيدة رثى بها بنى فهد ، ويذكر أيامهم(٢) [من الرمل] :

نحن للأيام غنم ونفل ترحل الأحداث عنا أو تحل

نقبل الضيم من الدهر وهل للذى نأباه بالدهر قبل

---

(١) العمدة ٢/١٤٧

(٢) ديوانه ٢/٥٦٦ ، ٥٩٧ ، ٥٦٨

وإذا مازلت النعل بنا   فمن الأيام لامنا الزلل

ثم ينتقل إلى ذكر أيامهم الماضية، وما صاروا إليه من تشتيت فى مشارق الأرض ومغاربها، وهذا ما يدعو إلى الأسف والحزن :

يابنى فهد هو الدهر الذى   نال من عزكم مالم ينل

أشرقت أيامكم ثم دجت   وسجا ظلكم ثم انتقل

نقض الدهر بكم أوتاره   من ملوك ذلو الدهر فذل

وأرى الأملاك من أسرتنا   قصدت ملكهم حتى اضمحل

ألبست قوما سواهم حليهم   ثم بزته فرحوا بالعطل(١)

ويذكر فضائلهم التى كانوا عليها، ثم يختم ذلك بالرجاء والأمل فى أن ترجع حالتهم كما كانت(٢)، فيقول :

أين أيديكم إذا الخطب عرا   وأياديكم إذا المحل شمل

ولو أن العز يثوى يثوى   فى قبيل لثوى فيكم وحل

وعسى الأيام ترتاح لكم   فيعود الهم بالعود جذل

هل أرى أيديكم مبسوطة   بين حالين سماح وقبل

ولا يخفى مافى هذه الأبيات من تشبيهات لطيفة، كالتشبيه فى قوله « نحن للأيام غنم ونفل »، واستعارات جيدة، كالاستعارة المكنية فى قوله : « أشرقت أيامكم» وفى قوله : وسجا ظلكم، مع الطباق بين قوله : أشرقت ودجت، وقوله : نال عزكم و : مالم ينل، وغير ذلك من الصور البيانية والأصباغ البديعية .

---

(١) بزته : سلبته، العطل : الخلو من لبس شىء فى الرقبة أو غيرها .

(٢) انظر تعليق محقق الديوان ١١٥/١

ونراه حين فجع بموت أبيه ، يرثيه بصدق عاطفة ، حيث يعيش تجربة حقيقية ، فيذكر فى بداية ذلك مصائب الدهر وحوادثه التى أفنت الملوك والفرسان ، ثم ينتقل إلى رثاء أبيه ، يقول(١) [من مجزوء الكامل] :

كر الخطوب على الفوارس   وطلابها الصيد الأشاوس(٢)

والدهر يطرق بالفوا   دح أو يصبح بالدهارس(٣)

غاز يظفر بالنفو   س وبالذخيرات النفائس

أردى معاول تبع   وسطا على أحرار فارس

وكذاك أطفا من أبى   قابوس جمرة كل قابس(٤)

من بعد ما جاب الفلا   ة بعكفهر النقع عابس

وتفاوتت أيامه   فمفيد مسعدة ناحس

وأصاب جبار المدا   ئن قائم الفئتين جالس

يغدو الخميس أمامه   جم الغماغم والوساوس

إنى لمن قوم مضوا   شم المآثر والمعاطس(٥)

راع يسير القوم تحـ   ـت لواء موكبه وسائس

---

(١) ديوانه ٢/٣٢٤

(٢) الصيد : جمع أصيد وهو الشجاع ، والأشاوس : جمع أشوس وهو من ينظر بمؤخر عينه تكبرا أو تغيظا .

(٣) الفوادح : الحوادث الثقيلة ، الدهارس : الدواهى .

(٤) قابس : أحد ملوك المناذرة .

(٥) المعاطس: جمع معطس وهو الأنف ، وشم المآثر والمعاطس كناية عن صفة المجد والسيادة .

مالى أرى الربض اقشعـ ـر لفقده فتاه يابس[1]
وارتد مسود النهـا ر وكان مبيض الحنادس[2]
وغدت تجر بساحتيـ ـه ذيولها النكب الروامس[3]
يا ابن السرى مرى الغما م إليك بالغر الرواجس[4]
حتى يعود ثراك غضـ ـض العود مخضر الملابس
ولئن رحلت عن الأنيـ ـس إلى محل غير آنس
فالدهر ليس يفوت ركـ ـض خطوبه ركض الفوارس
أو ما رأيت ضراغم الـ ـدنيا لوثبته فرائس[5]

وقد تحلت هذه القصيدة أيضا بتشبيهات واستعارات وألوان بديعية - وخاصة الطباق - فى غاية الروعة والجمال، وظهر فيها الرثاء بذكر الفضائل للمرثى لكننا نراه لا ينصب المفعول وهو « يابس» لأجل القافية التى وقف عليها بالسكون، وللسرى الرفاء قصيدة يذكر فيها أيام بنى فهد ويرثى أبا بكر المراغى يقول فيها[6] [من الكامل] :

أسمعتما أن الجبال تضام ؟ أعلمتما من غالت الأيام ؟
فجع تطير له على أحشائنا
شعل وتسقط فى القلوب سهام[7]

---

(١) الربض : اسم مكان فى الموصل
(٢) الحنادس : الليالى المظلمة
(٣) الروامس : الرياح التى تثير التراب وتدفن الآثار
(٤) الغر الرواجس : الغيوم الراعدة
(٥) فرائس : جمع فريسة .
(٦) ديوانه ٦٨٩/٢ (٧) فجع : فجيعة وكارثة

ورزية أخذ الجوى ما يبتغى   منا ونال بها الذى يستام[1]

شهدت بتحليل الدموع وخبرت
أن العــزاء على اللبيب حرام

أين الفتى الأزدى بل أين النـــدى الـ
ـفهدى أين البؤس والإنعام ؟

أين الألى شرب الحمام نفوسهم   وهم حياة غضة وحمام ؟

أمحمد بن على احتفل الحيا   ودموعنا فيهما عليك سجام

تبكى العلوم عليك فى أوطانها
ورياض تلك الصحف والأقلام

وأرى ذوى الآداب بعدك أمة
ضلت وليس لهـــا سواك إمام

قالوا : خبت نار على أعلامها   قلنا أجل وتهاوت الأعلام

قد كانت الأفهام صافية بها   فالآن إذ صـــدئت الأفهام

وكأنمـا ارتحل الغنى عن أهلها   لمـا ثويت وخيم الإعـــدام

ويظل يعدد فى هذه القصيدة صفات الكرم والشجاعة والإباء والسؤدد والحلم والعزة والمجـــد لأبى بكر المراغى ، ولعلنا نلمس فيها بعض الصدق والعاطفة ، ونشعر بشيء من الإخلاص والوفاء ؛ لأنه كان أحياناً يلتقى به ، فيشربان الخمر معا ، ويقضيان وقتا فى اللهو واللذة[2] .

وللسرى قصائد أخرى فى الرثاء غير ماتقدم فقدرثى والدة أبى تغلب بن

---

(١) رزية : مصيبة ، يستام : يساوم على ما يريده

(٢) أنظر رأى محقق الديوان ١/١١٧

ناصر الدولة وعدد فضائلها ورثى والد أبى اسحق الصابى ، وعدد له فضائله من جود وسؤدد ، ومكارم بيض ، ويمزج ذلك بمدح أبى اسحق نفسه بالصبر والشجاعة والعلو والفصاحة ، ثم يختمها مفتخرا بقصيدته هذه[1] .

ونلاحظ أن السرى الرفاء فى فن الرثاء يمدح الميت بالصفات المتعارف عليها فى المدح وهى فضائل المرثى التى يريد الشاعر أن يبرزها ، والمرثية — كما يقول أبو هلال العسكرى[2] — مديح للميت ، والفرق بينها وبين المديح أن تقول: كان كذا أو كذا ، وتقول فى المديح: هو كذا وأنت كذا .

ويقول[3] : « وينبغى أن تتوخى فى المرثية ما تتوخاه فى المديح إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : مات الجود ، وهلكت الشجاعة ، ولا تقول : كان فلان جوادا وشجاعاً ؛ فإن ذلك بارد غير مستحسن » .

كما نلاحظ أن أسلوب الرثاء عند السرى : أسلوب حزين باك ؛ لأن الباعث عليه الأسى والحسرة والوفاء ، وله تأثيره القوى فى النفوس خاصة إذا امتزج بصدق العاطفة والانفعال بالفجيعة مثل رثاء أبيه ورثاء أبى بكر المراغى ، وعباراته سهلة رقيقة ، لا التواء فيها ولا غموض .

ويكون السرى بذلك قد التزم مقاييس فن الرثاء التى قررها أكثر النقاد وتعارف عليها الشعراء[4] .

ويقول ابن رشيق فى بيان بعض مقاييس الرثاء : « وسبيل الرثاء أن

---

(١) أنظر الديوان وشرح المحقق ١/١١٨

(٢) فى الصناعتين ١٣٧

(٣) المصدر السابق ١٣٧

(٤) أنظر نقد الشعر ١١١ — ١٢١ والصناعتين ١٣٧ وما بعدها

يكون ظاهر التفجع ، بين الحسرة ، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيراً(١) » ،

والذى دعا ابن رشيق إلى قصر الرثاء — بهذه الصفة — على الملوك والرؤساء والكبار طبيعة العصر الذى سبقه والذى عاش فيه ، وأن الرثاء كالمدح ، يصل به الشاعر إلى بغيته ، وللعظماء منه نصيب الأسد ، أما عامة الشعب فلا نصيب لهم ؛ لأنه لا طائل للشعراء عندهم ؛ وإن كنا نرى ألوانا من الرثاء بلغت القمة فى التأثير ، والإصابة للغرض ، وظهرت فيها العواطف المشبوبة ، التى أبانت عن الحزن العميق ، واللوعة والأسى ، وكانت هذه الألوان لرثاء عزيز : زوج ، أو أخ ، أو ابن أو ماشا كل ذلك ، وليس رثاء جليلة بنت مرة لزوجها كليب ، أو رثاء الخنساء لأخيها صخر ، أو ابن الرومى لابنه وغيرهم ، إلا ألوانا رائعة من هذا الفن ، صبغت كلها بالعنصر العاطفى الذى هو أساس الرثاء(٢) ، ممزوجا بالتفجع والحسرة ، مخلوطا بالتلهف والأسى والاستعظام .

---

(١) العمدة ٢/١٤٧

(٢) أنظر البحث البلاغى والنقدى بين قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى — رسالة دكتوراه — ص ٤٨٠

٧ — الفخــــر

والفخر من الفنون الشعرية التى تناولها الشعراء قديما، والفخر والافتخار بمعنى واحد، وهو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار(١) .

وقد وضع أبو هلال العسكرى للرثاء والفخر قواعد، هى قواعد المدح واعتبرهما داخلين فيه، ولم يفرق بين المديح وبينهما إلا بفرق ضئيل، يقول : إن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحسب، وما يجرى مجرى ذلك(٢) »

وهو بهذا يضع الفضائل النفسية مقياسا لجودة الفخر، ويضم معها شرف الآباء يقوله : « والحسب »، وقد قال فى باب « جودة المدح » : فإنه لا ينبغى أن يخلو المدح من مناقب لآباء الممدوح، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه(٣) » .

إذن الفرق بين المدح والفخر هو أن المدح إثبات الفضائل للغير، والفخر هو إثباتها للشاعر ولقومه .

---

(١) العمدة ٢/١٤٣

(٢) الصناعتين ١٣٧

(٣) انظر البحث البلاغى والنقدى بين قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى، ٤٨٣، والصناعتين ١١٠

(٤) البحث البلاغى والنقدى بين قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى ٤٨٣

وبعض النقاد — أمثال قدامة بن جعفر — قد بحث فن المدح ، على أنه يشمل مدح الغير ، ومدح الشاعر نفسه أو قبيلته ، وبذلك لم يعقد بابا خاصا للفخر ، وأورد شواهد لفنى المدح والفخر تحت باب « المدح »(١)

وقد تناول السرى الرفاء فن «الفخر» ولكن بصورة قليلة أيضا ، وكان فخره ممزوجا بالمدح والهجاء . وبعض قصائد الرثاء، فلم ينشيء قصيدة مستقلة للفخر ، وكان فخره بنفسه وبقومه وبشعره .

فمن فخره بنفسه قوله فى افتتاح قصيدة يهجو بها الخالدى وابن العصب وقد ناضل عنه (٢)[من الطويل] :

إلام يروم الحاسدون نضالى وأيمانهم فى الرمى دون شمالى

أنا الصارم المشهور كادنى العـــدا(٣) بإفك هـــوت أركانه ومحـــال

فما ثلم الأعداء حد مضاربى ولا شرب الأعداء ماء صقالى

إذا هبطت أنساب قوم فموطنى ذرا نسب بين التتابع عالى

وناهيك من أيد تصول والسن تقول وأرماح تهز طوال

وهو هنا: يفتخر بإثبات الفضائل النفسية له من: شجاعة وعلم وحسب، وذلك بأسلوب جزل قوى ، وعبارات رصينة ، تتفق وخصائص الفخر التى قررها النقاد ، وقد جملها ببعض الصور البيانية من تشبيه : كقـوله : أنا الصارم المشهور ، واستعارة : كما فى قوله : بإفك هوت أركانه ، حيث شبه الإفك ببيت له أركان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه

---

(١) انظر نقد الشعر ٧٥ ، ٧٦ ، ٢٢٠

(٢) ديوانه ٢/٥٧٢

(٣) كادنى : مكرنى .

وهو الأركان على سبيل الاستعارة المكنية ، وكما فى قوله : حد مضاربى ، وماء صقالى . والمراد بذلك هجاءه اللاذع ، ولسانه السليط ، وقد نثر فيها بعض الأصباغ البديعية : كالطباق بين « هبطت » و « ذرا » ومراعاة النظير بين « أيد » و « ألسن » وبين « أيمانهم » و « شمالى » .

وقال مفتخرا بنفسه فى افتتاح قصيدة يمازح بها رجلا من أهل الموصل كان أبوه مزينا(١) [من الوافر] :

أحل بعقوة(٢) الشرف التليد(٣) وألبس جنة(٤) الصبر العتيد

وأعلم أننى شرق المعادى بيرد شرابه وشجا الحسود(٥)

وأصفح والمنايا الحمر حولى تبرج والصواعق من جنودى(٦)

وقد تضمنت هذه الأبيات الفخر بفضيلة الشرف والحلم والصبر ، وفيها من الصور البيانية مالا يخفى على المتأمل .

والأسلوب : جزل الألفاظ ، رصين العبارات — كسابقه — .

---

(١) ديوانه ٢/٨٠

(٢) العقوة والعقاة : الساحة وما حول الدار والمحلة ، وجمعهما عقاء — لسان العرب ١٩/٣١١

(٣) التليد : القديم .

(٤) الجنة — بضم الجيم — : ما استترت به من سلاح ، والجنة أيضا : السترة .

(٥) الشرق : الشجا والغصة ، والشجا : ما ينشب فى الحلق من عظم وغيره ، وقد أراد الهم والحزن .

(٦) تبرج : أصله تتبرج ، ومعناه : تظهر وتلتمع .

أما فخره بقومه فلا يتعدى خمسة أبيات (١) جاءت فى قصيدته التى يرثى بها أباه ، فقد ذكر قومه من ملوك كندة ونوه بكرمهم ومجدهم ، وهى(٢): [من مجزوء الكامل] :

إنى لمن قوم مضوا شم المآثر والمعاطس(٣)
راع يسير القوم تحت لواء موكبه وسائس
وفتى إذا قيس الغما م بنيله ظلم المقايس
يهدى له در المحا مد حشو أصداف القراطس
ما نيل مجدهم وأذ نى يلمس الجوزاء لامس

وما أجمل الكناية عن صفة المجد والسيادة فى قوله : « شم المآثر والمعاطس » وكذا التشبيه الضمنى فى البيت الأخير حيث بين أن مجدهم لا يصل إليه أحد ، وما أروع الفخر بالجودة فى قوله « إذا قيس الغمام بنيله ظلم المقايس » .

وخصائص أسلوبه هنا كخصائص أسلوبه فى القطعتين السابقتين ، بل وسائر نماذجه فى الفخر .

أما فخره بشعره فكثير إذا ما قيس بالنوعين السابقين من الفخر ، وفخره بشعره يوجد ممزوجا بقصائد مدحه وقصائد هجائه .

من ذلك قوله فى ختام قصيدة مدح بها أباالفوارس سلامة بن فهد [من الوافر(٤)] :

(١) كما يقول محقق الديوان — انظر ديوان السرى ١/١٢٧
(٢) ديوانه ٢/٣٢٥
(٣) المعاطس : جمع معطس وهو الأنف .
(٤) ديوانه ٢/٩٩

وكم لى فيك من عذراء بكر تخال لحسنها عذراء رودا(١)
عرائس ما اجتلاها الطرف إلا أباحته السوالف والخدودا
بألفاظ يراها القلب بيضا إذا ما عاينتها العين سودا
مخلدة تطيل شجا الأعادى وتضمن عن معاليك الخلودا
شغلت بها قلوب الناس طرا فما تنفك نسخا أو نشيدا

وهو هنا يشبهها فى جمالها بالعذراء التى تتهاوى فى مشيتها ، وبالعرائس التى بجمالها تسحر العيون ، وهى مخلدة بما فيها من أذى للأعادى ، ومافيها من مدح للمعالى ، وقد أعجب الناس بها ، حتى نسخها البعض ، وأنشدها البعض الآخر .

وفى ختام قصيدة أخرى فى مدح أبى الفوارس سلامة بن فهد ، يشيد بتأثير شعره على السامعين ، ويشبهه بالنجوم اللامعة التى يختفى فى ضيائها نجوم أخرى ، كما يشبهه بالزهر ، وببدائع الوشى ، وبالربيع الذى يأتى بألوان من الزهور ما بين أصفر وأحمر ، يقول(٢) [من الكامل] :

شغلتك عن حسن السماع مدائح
حسنت فما تنفك تطرب سامعا
طلعت عليك أبا الفوارس أنجم
منهن يخجلن النجوم طوالعا
زهر إذا صافحن سمع معاند
خفض الكلام وغض طرفا خاشعا

---

(١) العذراء الرود : التى تمشى على مهل وبرفق .

(٢) ديوانه ٢/٣٦٣

جاءتك مثل بدائـع الوشى الذى
ما زال فى صنعاء يتعب صانعـاً
أو كالربيع يريك أخضر ناضرا
ومورداً شرقـاً وأصفـر فاقعـا

ثم يصف شعره بالدر بل هو أكثر فى لألائه منه ، وذلك فى نهاية قصيدة طويلة مدح بها الأمير سيف الدوله — أبا الحسن على بن عبد الله بن حمدان — ويصف فيها وقائعه ، يقول[1] (من الـكامل) :

ألفاظـه كالدر فى أصدافه   لا بل يزيد عليه فى لألائه
من كل ريقة الـكلام كأنما   جاد الشباب لها بريق مائه[2]

والشعر بحـر نلت أنفس حليـه
وتنافس الشعـراء فى حصبائه[3]

ويبالغ فى وصف قصائده حتى إنه ليزعم أن البحترى إذا سمعها جفا[4] لها قصيدته (أرسوم دار) وتركها ، أما أبو تمام فيرجع عن قوله ، وتبهره إن تأملها واطلع عليها ، يقول :

لو صافحت سمع الوليد جفا لها   أرسوم دار أم سطور كتاب ؟

---

(١) ديوانه ١ / ٢٧٧ قال هذه القصيدة فى حلب بين سنوات ٣٣٩ — ٣٤٩ هـ

(٢) الريق بفتح الراء وتشديد الياء مع كسرها —: أول المطر ، وريق الشباب : أوله — اللسان ١١/٤٢٩ —

(٣) الحلى — بفتح فسكون — : ما تتحلى به المرأة من ذهب ونحوه ، والحصباء : الحصى

(٤) جفا : أى لم يلزم مـكانه

بل لو تأملها ابن أوس لم يقل
لو أن دهرا رد رجع جواب

وهو فى صفه لشعره وافتخاره به ترجع اليه خصائص شعر الوصف للمناظر الجميلة ، فيأتى بألفاظه الرقيقة ، وعباراته السلسة ، ومعانيه السهلة ، وهذا ظاهر مما سبق ، ومن يتصفح ديوانه يجد الكثير من أوصافه لشعره فى ثنايا مدحه أو هجائه أو تظلمه وشكواه من الخالديين .

٨ — فن الاعتذار

والاعتذار غرض من أغراض الشعر العربى ، تناوله بعض الشعراء ، وأشهرهم النابغة الذبيانى(١) فى اعتذاره إلى النعمان بن المنذر ، عندما أهدر دمه ،لوشاية ضده، فأنشأ النابغة قصائد ثلاث يستعطف فيها النعمان، فكانت سببا فى العفو عنه .

والاعتذار من العذر ، وهو الحجة التى يعتذر بها ، يقال: وفى هذا الأمر عذر وعذرى(٢) ومعذرة أى خروج من الذنب ، وأعذر إعذارا وعذرا : أبدى عذراً ، والعرب تقول : أعذر فلان إعذارا اى كان منه ما يعذر به ، والاعتذار بمعنى الإعذار ، والمعتذر يكون محقا ويكون غير محق ، قال الفراء : اعتذر الرجل : إذا أتى بعذر ، واعتذر إذا لم يأت بعذر ، وأنشد :

---

(١) هو أبو أمامة بن زياد بن معاوية أحد أشراف قبيلة ذبيان من القبائل المضرية وأحد فحول شعراء الجاهلية ، لقب بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجأة وهو كبير ، وهو ممن تكسب بالشعر فى الجاهلية ، ولكنه آثر مدح الملوك : ملوك المناذرة والغساسنة بالشام ، وكان ممن مدحهم من الأولين النعمان بن المنذر ، فقربه إليه ،ثم وشى به عنده، وهم بقتله ، ففر إلى ملوك الشام ، فمدحهم ، ولم يطب مقامه بالشام ، فعاد يستعطف النعمان بقصائد رائعة كانت سببا فى عفوه عنه،توفى النابغة فى السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة — انظر الأغانى وانظر المنتخب من أدب العرب ٤/٢٩ تأليف احمد الاسكندرى وأحمد أمين وآخرين ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٢ م ، وانظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات الطبعة الخامسة والعشرون — دار نهضة مصر

(٢) بضم فسكون ففتح

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم
ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

أى : أتى بعذر ، وقال الله تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم »(١) قل لا تعتذروا ، يعنى أنه لا عذر لهم(٢) ، ويقال : عذرت : أى محوت الإساءة وطمستها ، والاعتذار قطع الرجل عن حاجته وقطعه عما أمسك فى قلبه ، واعتذرت المنازل أى درست .

وعلى هذا التفسير اللغوى يمكن أن نقول: إن اعتذار الشاعر هو إظهار الحجة على براءته من تهمة رمى بها ، حتى يترتب على ذلك عفو من المعتذر إليه ، وقد عرفه الأستاذ الهاشمى بقوله : هو درء الشاعر التهمة عنه ، والترفق فى الاحتجاج على براءته منها ، واستمالة قلب المعتذر اليه واستعطافه عليه(٣) .

وقد فصل ابن رشيق سبب التسمية بقوله(٤) : « وفى اشتقاق الاعتذار ثلاثة أقوال :

أحدها : أن يكون من المحو ، كأنك محوت آثار الموجدة ، من قولهم : اعتذرت المنازل ، اذا درست ، وأنشدوا قول ابن أحمر :

أم كنت تعرف آيات فقد جعلت أطلال إلفك بالودكاء تعتذر(٥)

---

(١) التوبة ٩٤
(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ٦/٢٢٠
(٣) انظر جواهر الأدب ٢/٢٦ تأليف السيد احمد الهاشمى — مؤسسة المعارف ببيروت —
(٤) العمدة ٢ / ١٨٠
(٥) وانظر لسان العرب ٦ / ٢٢٧

والثانى : أن يكون من الانقطاع ، كأنك قطعت الرجل عما أمسك فى قلبه من الموجدة ، ويقولون « اعتذرت المياه » إذا انقطعت ، وأنشدوا للبيد :

شهور الصيف واعتذرت إليه   نطاق الشيطين من السماء(١)

والقول الثالث : أن يكون من الحجر والمنع . . . قال أبو جعفر : يقال « عذرت الدابة» أى جعلت لها عذارا يحجزها من الشراد(٢) ، فمعنى « اعتذر الرجل » احتجز ، وعذرته : جعلت له بقبول ذلك منه حاجزا بينه وبين العقوبة والعتب عليه ، ومنه « تعذر الأمر » احتجز أن يقضى ، ومنه « جارية عذراء» .

والسرى الرفاء له شعر فى الاعتذار ولكنه قليل بالنسبة لأغراض المدح والهجاء والوصف والغزل ، وجاء قسم كبير منه فى مدائحه ، وجاء قسم آخر فى مقطوعات منفصلة .

والاعتذار كان موجها إلى بعض ممدوحيه كأبى الهيجاء حرب بن سعيد ابن حمدان ، وسيف الدولة ، وسلامة بن فهد الأزدى ، وأبى اسحق الصابى وقد كان منصبا على الإخلاص والصدق والتوسل وطلب العفو عنه من لدنهم ، ومبيناً لهم ندمه وأسفه وسوء حاله وشدة قلقه(٣) .

ولنسمع إلى السرى من قصيدة يمدح فيها أبا الهيجاء حرب بن سعيد

---

(١) وانظر اللسان ٦/٢٢٦ وفيه «الشمال» بدل « السماء »

(٢) العذار — بزنة الكتاب — : اللجام ، ويحجزها : يمنعها ، والشراد — بكسر الشين — : النفار والجماح .

(٣) أنظر محقق الديوان — ديوان السرى ١/ ١٣٣

ابن حمدان ويعتذر إليه ، ويدافع عن نفسه، ويرد وشاية الواشين فيقول(١) (من الكامل) :

ملك إذا ما مد خمس أنامل في الجود فاض لنا بخمسة أبحر
تلقاه يوم الروع فارس معرك ضنك ويوم السلم فارس منبر
تبكي سحائبه ويضحك بشره فتراه من ضاحك مستبشر
عمرت أبا الهيجاء ربعك نعمة موصولة بك عمر سبعة أنسر
أسهرت ليلي إذ عتبت فلم أذق غمضا ومن تعتب عليه يسهر
أنسيت غــر مدائح حليتها بعلاك باقيـة بقاء الأعصر
هـذا ولم أجن القبيح فأجتني غضبا ولم أهجر لديك فأهجر(٢)
بل قـد ركبت من الذنوب عظائما
ورجوت عفوك فاعف عني واغفر
فلقـد تعمـد ثغرتي بسهامه
واش تعمـدني بقبـح المحضر(٣)
يا سيـد الأمراء دعـوة شاكر
إن يعط أو يحرم صنيعك يشكر

والسري في اعتذاره هذا يظهر قلقه، ويسهر ليله من جراء عتب الأمير

---

(١) ديوانه ٢/١٦٣

(٢) أهجر — بضم فسكون فكسر — : أهـذى أو أفحش في المنطق ، وأهجر — بفتح فسكون ففتح — : من الهجران وهو الترك والخصام ، وبين اللفظين جناس ناقص

(٣) الثغرة : موضع المخافة والثلب .

وغضبه عليه ، وكيف لا يقلق ولا يسهر والأمير صاحب جود وفضل عليه .

وحتى يزيل هذا الغضب ، ويمسح هذا العتب استعطفه بأسلوب هادىء رقيق ، وعبارات لطيفة تصل إلى القلب ، معتذرا عما ارتكبه من ذنوب، طالباً العفو والصفح عنه ، ضارعا إليه أن يشمله برضاه ، مبيناً أن الواشى قد تعمد إثارة القبيح ضده وهو لم يرتكبه .

والسرى بهذا الأسلوب يكون مراعيا الخصائص الفنية ، التى رسمها النقاد لفن الاعتذار ، ولقد نبه ابن رشيق الشاعر إلى ما ينبغى توفره من خصائص تجاه هذا الفن . حيث قال :

«فليذهب — الشاعر فى الاعتذار — مذهبا لطيفا ، وليقصد مقصدا عجيبا ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه، وكيف يمسح أعطافه، ويستجلب رضاه ، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ ، لاسيما الملوك وذوى السلطان ، وحقه أن يلطف برهانه ، مدمجا فى التضرع والدخول تحت عفو الملك ، وإعادة النظر فى الكشف عن كذب الفاعل(١) ، ولا يعترف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه ، ويحيل الكذب على الناقل والحاسد ، فأما مع الإخوان فتلك طريقة أخرى »(٢) .

ولقد تأثر السرى — كما تأثر غيره من الشعراء — بالنابغة الذبيانى فى اعتذاراته الثلاث المشهورة ، التى أوضحت معالم الاعتذار لمن بعده من الشعراء ، بل وساعدت النقاد على استخلاص سمات هذا الفن الشعرى .

---

(١) أى الواشى .
(٢) العمدة ٣/١٧٦ ، وأنظر الأساس فى النقد والبلاغة ٢/١٥٥

ولنسمع نماذج من اعتذارات النابغة حتى يتأكد لنا ذلك .

قال(١) يمدح النعمان بن المنذر ، ويعتذر إليه من قصيدة مطلعها :

عفا ذو حسا من فرتنى فالفوارع
فجنبا أريك فالتلاع الدوافع(٢)

ومنها فى الاعتذار :

أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى
وتلك التى تستك منها المسامع(٣)

لعمرى — وما عمرى على بهين
لقد نطقت بطلا على الأقارع(٤)

أتاك امرؤ مستبطن لى بغضة
له من عدو مثل ذلك شافع(٥)

---

(١) أنظر المنتخب من أدب العرب ٣٣/٤ والعمدة ١٧٨/٢

(٢) عفا : درس ، وذو حسا والفوارع وأريك والتلاع : أسماء مواضع ، وفرتنى — بفتح الفاء والراء وسكون التاء وفتح النون — : اسم امرأة ، والمعنى : عفا من منازل فرتنى ذو حسا ومجاوره من الفوارع وجانبى أريك فتلك التلاع التى تدفع الماء إلى الوادى .

(٣) أبيت اللعن : جملة يدعى بها للملوك ، أى : حفظت مما تلعن به ، تستك : تضيق ، والمعنى : أتتنى عنك ملامة يضيق عنها السمع ويأباها .

(٤) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف وكانوا قد وشوا به إلى النعمان .

(٥) أى أتاك واش يبطن لى البغض يشفعه آخر مثله من أعدائى .

لكلفتني ذنب امرىء وتركته
كذى العر يكوى غيره وهو راتع(١)

فإن كنت لاذو الضغن عنى مكذب
ولا حلفى على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشىء أقوله   وأنت بأمر لا محالة واقع(٢)

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(٣)

وقال معتذرا إلى النعمان من مدح آل جفنة ومحتجا بإحسانهم إليه(٤) :

أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى
وتلك التى أهتم منها وأنصب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

---

(١) لكلفتنى : جواب القسم ، العر : قروح مثل القرباء تخرج من الإبل متفرقة فى مشافرها وقوائمها ، فتكوى الإبل السليمة حتى لا تعديها المريضة المعنى : لقد أخذتنى بذنب الجانى وتركته ، فأنا وهو مثل الفصيل المعرور، يترك راتعا يأكل ما شاء فى مرعاه ، ويكوى غيره وهو سليم .

(٢) أى : أنت فى أمر إيذائى واقع لا محالة .

(٣) أى : فإن عقابك كالليل ، أى لا أنجو من عقابك مهما اتسعت أمامى مذاهب البعد .

(٤) أنظر جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب ٢/٤٠ تأليف السيد أحمد الهاشمى — مؤسسة المعارف ببيروت —

(٥) جناية : ذنبا .

لئن كنت قد بلغت عنى جناية(١)
لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت أمرا لى جانب(٢)
من الأرض فيه مستراد ومذهب(٣)
ملوك وإخوان إذا ما لقيتهم أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم فى شكرهم لك أذنبوا
فلا تتركنى بالوعيد كأننى
إلى الناس مطلى به القار(٤) أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة(٥) ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإن أك مظلوما(٦) فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبى(٧) فمثلك يعتب(٨)

والنابغة يعتذر إلى النعمان بن المنذر أيضا — من قصيدة مطلعها — :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

يقول فيها(٩) :

---

(١) جناية : ذنب
(٢) جانب : ناحية ويريد بها الشام .
(٣) مستراد : موضع أتردد فيه لطلب الرزق .
(٤) القار : القطران .
(٥) سورة : منزلة رفيعة وشرفا .
(٦) جعل غضبه ظلما لأنه عن غير موجب .
(٧) عتبى : رضا .
(٨) يعتب : يرضى .
(٩) أنظر الأغانى ٣/١٢٢٤ والعمدة ٢ /١٧٧

فلا لعمر الذى مسحت كعبته
ومادريق على الأنصاب من جسد

ما قلت من سيء مما أتيت به
إذا فلا رفعت سوطى إلى يدى

إذا فعاقبنى ربى معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالحسد
إلا مقالة أقوام شقيت بها كانت مقالتهم قرعا على الكبد
نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

وبالمقارنة بين اعتذار السرى واعتذارات النابغة نجدهما يتفقان فى أن كلا منهما يسترضى المعتذر إليه، ويتضرع حتى يحظى بالعفو، ويبين أن سبب الغضب على المعتذر جاء من وشاية الحاسد الحاقد، كل ذلك بأسلوب يلطف برهانه، ويستجلب العفو والرضا.

ويتميز النابغة عن السرى فى ذلك بمتانة الأسلوب، والقصد فى استعمال ألفاظ المجاز وعدم تعمد المحسنات البديعية اللفظية. وإيراد المعنى بأخصر طريق وغلبة استعمال الألفاظ الجزلة، مع قوة التشبيه. ودقة المفردات وحسن التعليل، ومع تأكيد كلامه بالقسم والجمل المعترضة، وما أجمل التشبيه الضمنى فى قوله: نبئت أن أبا.. البيت، والتشبيه الصريح فى قوله: فإنك كالليل الذى هو مدركى... البيت، وقوله لاتتركنى بالوعيد.. البيت.

بينما يختص السرى برقة ألفاظه، وحلاوة تعبيره، وكثرة تشبيهاته واستعاراته وأصباغه البديعية.

وإليك نموذجا آخر من اعتذاره إلى أبى الهيجاء حرب بن سعيد، يذكر فيه أنه لا يستطيع الصبر على جفاء الأمير مع أنه على خطوب الدهر صبور، وذلك لأن مرارة جفائه أشد من مرارة الدهر، بل إن جفاءه قد

قلب السرور عدوا ، والمدامة ضدا ، من أجل ذلك يطلب رضاه وعفـوه بتضرع وتلطف يقول(١) (من الخفيف) :

أنا جلد على الخطوب ولكن لست فيها على جفائك جلدا

أوسع الدهر مذ تعتبت ذما بعد ما كنت أوسع الدهر حمدا

وكأنى أرى السرور عدوا أتحاماه والمدامة ضدا

أجفاء مرا ولم أجن ذنبا فأجازى به جفاء وصدا؟

واطراحا يبيت يخلق صبرا بين أحشاى أو يجدد وجدا

حين جارت على أحداث دهر ليس يسلكن بى إذا جرن قصدا

وإذا قست هجرك المر بالدهر وما قد جناه كان أشدا

أنا حر إذا انتسبت ولكن جعلتنى تلك الصنائع عبدا

لا أقول : الغمام مثل أياديـ ـك ولا السيف مثل عزمك حدا

أنت أمضى من الحسام وأحيا من حيا المزن فى المحول وأندى

والسرى هنا يمزج مع الاعتذار مدح الأمير بالكرم وبقوة العزم ، حتى يزعم أنه أكرم من المزن فى وقت الجدب ، وأحد من السيف ، وقد تحلى الأسلوب بالتشبيه فى البيتين الأخيرين ، وببعض المحسنات كالجناس الناقص بين « أحيا » و « حيا » والطباق بين « ذما » و « حمدا » ، فى قالب من الألفاظ السهلة ، والمفردات الرقيقة ، والمعانى القريبة حيث لا يلتوى منها شىء على الأفهام ، وعاطفة الشاعر صادقة فى النموذجين السابقين . مشوبة بالحزن والألم من وقيعة الحساد ، والندم والأسف على ما حدث بين الشاعر والمعتذر إليه .

---

(١) ديوانه ٢/٦٧

ويعتذر السرى أيضا إلى الأمير سيف الدولة فى قصيدتين ، وذلك عندما انصرف إلى حلب دون إذن من الأمير ، فيظهر أسفه وندمه ، معترفا بخطئه ، مبررا أنه كان مضطرا إلى السفر ، طالبا العفو والسماح إزاء هذا ، ونراه لا يذكر الحساد والوشاة فى النموذج التالى (١).

يقول(٢) (من البسيط) :

يا صارم الله إن الدين قد علقت	كفاه منك بحبل ليس ينصرم
أشيم عفوك علما أن ستنشره	على قلك السجايا الغر والشيم(٣)
كان انصرافى جرماً لا كفاء له	عندى وأى لبيب ليس يجترم
رأى هفا هفوة زلت لها قدمى	وما هفا الرأى إلا زلت القدم

هو اضطرار أزال الاختيار وهل
يختار ذو اللب ما يردى وما يصم(٤) ؟

وكيف يجتنب الظمآن مورده
عمـدا إذا راح وهو البارد الشبم(٥) ؟

صفحا فلو شق قلبى عن صحيفته	لظل يقرأ منه الخوف والندم

ونلاحظ هنا إيراد « العجز على الصـــدر »(٦) بكثرة ، وذلك بين

---

(١) انظر رأى محقق الديوان ١/١٣٤

(٢) ديوانه ٢/٦٧٥

(٣) أشيم : من شام البرق أى نظر إلى سحابتـه أين تمطر ، والشيم : جمع الشيمة وهى الخلق .

(٤) يردى : من الردى وهو الهلاك، يصم : من الوصم : وهو العار والعيب

(٥) الشبم ـ بفتحتين ـ البرد ، وقد شبم الماء أى برد .

(٦) وهو فى النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين =

« صارم » و « ينصرم » ، وبين « أشيم » و « الشيم » ، وبين « جـــرما » و « يجترم » ، وبين « قدمى » و « القدم » وأرى أن العاطفة فى هذا الاعتذار ليست صادقة ، بل يكتنفها التكلف والتعمل ، مثله فى ذلك مثل النموذج التالى ، وقد قاله أيضا معتذرا إلى سيف الدولة عند انصرافه عن حلب بغير إذنه ، يقول(١) (من الكامل) :

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة ... يرمى يسهم الحين من يرمى به
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم ... بقنا ابن عبد الله أو بحرابه
فارقت مشربه الذى لا تنطفى ... غلل الحشا إلا ببرد شرابه
ودخلت أبواب الندامة بعدما ... عصفت بى الأحداث عن أبوابه
هى زلة الرأى التى نكص الغنى ... من سوء عقباها على أعقابه
فوحق نعمته على وطوله ... قسما يقول السامعون كفى به
ما سولت لى النفس هجر ظلاله ... عند الرحيل ولا اجتناب جنابه
أنى وقد نلت السماء بقربه ... وبلغت قاصية المنى بثوابه
لكنه رأى حرمت رشاده ... وبعدت عن تسديده وصوابه
سأهز بالكلم المهذب عطفه ... طربا وأخلب لبه بخــلابه
فعسى الزمان يبل حر جوانحى ... بصفاء مورده وبرد جبابه(٢)
فأفوز بالعذب النمير وينطوى ... كشح الحسود على أليم عذابه

= أو الملحقين بهما فى أول الفقرة والآخر فى أحدهما ، وفى الشعر أن يكون أحدهما فى آخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صدر الثانى — الإيضاح ٦/١٠٣ شرح خفاجى .

(١) ديوانه ٢/٣٧٠

(٢) الجباب : جمع جب وهو البئر الذى لم يبن بالحجارة .

وقد لاحظنا أيضا التكلف فى استعمال « رد العجز على الصدر » الذى أورده بصورة ظاهرة التصنع ، حيث جاء ذلك بين « يرمى » و « يزمى به » وبين « مشربه » و« شرابه » وبين « أبواب » و« أبوابه » وبين « عقباها » و « أعقابه » وبين « العذب » و« عذابه ».

كما ورد فيها الملحق بالجناس متكلفا بين « اجتناب» و « جنابه » وبين و « أخلب » و « خلابه » .

والسرى فى خصائص فن « الاعتذار » يكون قد جارى فيه غيره من الشعراء وخاصة النابغة الذبيانى غير أن بعض اعتذاره قد خلا من قوة العاطفة ، وصدق التجربة ، وأن هذا الفن جاء مختلطا بقصائد المديح ، مثله فى ذلك مثل عتابه الذى يشابه إلى حد كبير اعتذاره .



٩ ــ فن الحكمة

وفن الحكمة من الأغراض الشعرية ، التى تناولها بعض الشعراء قديما وحديثا ، وهى قول رائع يتضمن حكما صحيحا مسلما به(١) .

وهى غرض لم يتناوله الشعراء كثيراً ، لأنهم يستوحون بوجدانهم معافهم من الطبيعة ، ويلونون سحر الحياة وجمالها ، أو حوادثها ونكباتها بأحاسيسهم ومشاعرهم وخيالاتهم وعواطفهم ، وحياتهم أشبه بحياة فطرية ساذجة غير معقدة ، لا تحتاج إلى تفرد بدرس ، أو قصد إلى تلقين حكمة ، أو اختصاص بتفصيل موعظة ، إلا ما دعا إليه الموقف ، واقتضته حال الشاعر ، عند المناسبات الداعية ، وفى غمار الحوادث الجارية(٢) ، وعندئذ تأتى الحكمة ، لتصور الواقع كما هو ، فيأتى شعرها فاتر العاطفة ، بعيداً عن صدق التجربة .

« ولا شك فى أن الإلحاح على الشعر بالحكمة ، وجعله نصحا خالصا يقلل من مخالطته النفوس ، ويضعف سحره الشعرى ، وقد يهبط به إلى مستوى الكلام المنظوم ، لأن الشاعر عندئذ يلتزم ركوب الصعب ، ويرتدى طيلسان الحكمة والنزاهة والورع ، وربما حمل نفسه بذلك ما ليس فى طبعها ، ودعا إلى غير ما يفعل ، ونهى عما لا يحترز منه ، فيفوته صدق الأداء ، وتعوز شعره حرارة العاطفة ، ويدركه الفتور ، ولأن النفس بطبيعتها تزور عن كل تكليف يئودها ، وتنفر من كل عقال يقيدها ، ولهذا غلب الضعف على شعر من التزم هذا المنهج ، كصالح بن عبد القدوس

---

(١) انظر جواهر الأدب ٢/٢٦

(٢) وانظر كتاب: حسان بن ثابت ٣٢٩ للدكتور محمد طاهر درويش. دار المعارف بمصر .

وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وغيرهما ، ولم يلق قبولا حسنا عند نقاد العرب ، وإن أعجب بعض أهل الورع والتقوى من المسلمين ، على أن هذا الإعجاب ربما كان راجعا فى جملته إلى ما حواه الشعر من حكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، لا إلى أنه شعر استوفى خصائص الشعر الرائق ، وأسباب الشاعرية الأصيلة ، ذلك لأن الشعر لا ينهض فنا جميلا دفاق الشاعرية بالحكمة المباشرة ، والموعظة السافرة ، فسبيل الأدب الرفيع الإيحاء والإيماء ، لا الإلزام والإملاء ، وطريقه التصوير والتلميح ، دون الكشف والتصريح[١] » .

وشعر الحكمة عند السرى الرفاء كان أقل من شعره فى كل من الاعتذار والعتاب والرثاء — فضلا عن باقى الأغراض الأخرى — وكانت حكمه — كما يقول د . حبيب الحسنى[٢] — ذات مجموعات ثلاث :

مجموعة قالها معبراً فيها عن آرائه وأفكاره فى الحياة والدهر .

ومجموعة أخرى عبر فيها عن آرائه فى الناس والأصدقاء .

ومجموعة ثالثة عبر فيها عن آراء عامة .

وكانت حكمه كلها تتسم بهذه الخصائص التى سبق توضيحها .

فمن حكمه التى قالها فى الدهر قوله[٣] :

خذوا من العيش فالأعمار فانية
والدهر منصرف والعيش منقرض

---

(١) حسان بن ثابت ٣٣٢

(٢) فى تحقيق ديوان السرى ١/١٤١

(٣) انظر الديوان ورأى المحقق ١/١٤٢ ، ٢/٣٤٣

ومنها ما قاله فى قصيدة يعزى بها الأمير عدة الدولة أبا تغلب بوالدته ، ويتظلم إليه من الخالدى وقد سرق كثيراً من شعره وادعاه (من الطويل)(١):

تبلد هذا الدهر فيما نرومه   على أنه فيما نحاذره ندب

فسير الذى يرجوه سير مقيـــد
وسير الذى يخشى غوائله وثب

فهو فى هذين البيتين يصور الدهر وكأنه إنسان تبلد فى الإستجابة لمطالبنا ، بينما يفعل هو مايشاء ، فلو رجوناه فى شىء تباطأ فى إنجازه ، وكأنه إنسان يسير مقيداً ، فى حين تأتى نوائبه وخطوبه سريعة ولا نرتضيها .

فالبيتان فيهما استعارة مكنية حيث شبه الدهر بالإنسان المتبلد الإحساس ، والذى يسير سير مقيد ، ثم حذف الإنسان ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو « تبلد » و« سير » .

ومنها ما قاله فى قصيدة يمدح بها أبا الحسن على بن محمد الشمشاطى العدوى ويعاتبه على انحـــرافه عنه إلى الخالديين ويحذره منهما (من الطويل)(٢) :

أأطلب إسعاف الزمان وقد ثنى
إلى العاجز المأفون عطف مساعف(٣)

ومن لم يكن للنقص يوما بمنكر
فما هو للفضل المبين بعارف(٤)

---

(١) ديوانه ١/٣٨٧   (٢) ديوانه ٢/٣٩٨ ، ٣٩٩

(٣) المأفون : ناقص العقل — اللسان ١٦/١٥٨

(٤) فى الديوان ٢/٣٩٩ : إذا لم يكن للنقص يوماً بمنكر . . .

وهو فى ذلك يبين أن الدهر يساعد العاجز ناقص العقل ، ومن ليس له من الفضل شيء ، ثم يقرر فى البيت الثانى بطريق الحكمة أن من لم ينكر النقص فما هو للفضل بعارف .

ومن حكمه التى قالها فى الأصدقاء والناس :

ما قاله فى عتاب صديق له (من الكامل)(١) :

لا تأنفن من العتاب وقرصه
فالمسك يسحق كى يزيد تماثلا
ما أحرق العود الذى أشممته
خطأ ولا غم البنفسج باطلا

وفى البيت الأول منهما تشبيه ضمنى حيث كان الشطر الأول بمثابة المشبه والشطر الثانى بمثابة المشبه به ، والمشبه فى مقام الدعوى ، والمشبه به فى مقام الدليل على هذه الدعوى ، وكأنه يقول : لا تأنفن من العتاب وألمه على النفس ، فهو يصفيها حتى تخلو من العيب ، مثلها فى ذلك مثل المسك فهو يسحق كى ينقى ويصفى .

ومن حكمه أيضا فى عتاب صديق له وقد أسر إليه حديثا فأذاعه (من البسيط)(٢) :

سرى إليك كأسرار الزجاجة لا
يخفى على العين منها الصفو والكدر
فاحذر من الشعر كسراً لا انجبار له
فللزجاجة كسر ليس ينجبر(٣)

---

(١) يتيمة الدهر ٢/١٦٧

(٢) ديوانه ٢/٢٧٤ واليتيمة ٢/١٦٧

(٣) الانجبار : الالتئام .

فقد شبه صديقه بالزجاجة الشفافة التى تظهر ما بداخلها ، وحذره بمثل قائلا له : احذر من هجائى لك بالشعر ، فإذا هجوتك أصبح الصفاء بيننا مستحيلا ، وصار حالنا كحال الزجاجة المكسورة ، فكسرها يستحيل جبره .

وهو فى البيت الثانى أتى بتشبيه ضمنى ، حيث كان الشطر الأول كالدعوى والشطر الثانى كالدليل عليها ، وهذا واضح جلى .

ومن حكمه ما قاله فى عتاب صديق آخر أفشى له سراً (من الطويل)(١) :

سأحفظ ما بينى وبينك صائنا
عهودك إن الحر للعهد صائن

ومن حكمه التى عبرت عن آرائه فى الأشياء العامة والناس ، قوله(٢) فى الأمر الثقيل الذى يعجز عنه الفرد وحده ، ويمكن أن يتعاون فيه القوم فيسهل ويخف :

إذا العبء الثقيل توزعته
رقاب القوم خف على الرقاب(٣)

ويوضح فى حكمة أخرى : أن الشر يعقبه الشر ، والذى يغرسه يجتنى الندم لا محالة على ما قدم ، فيقول(٤) :

---

(١) اليتيمة ٢/١٦٧
(٢) انظر هذا فى توضيح محقق ديوان السرى ١/١٤٣
(٣) ديوان السرى ١/٤٣٣ وذلك من قصيدة يهجو بها على بن العصب الملحى .
(٤) ديوانه ١/١٤٣

لا يغرس الشر غارس أبدا إلا اجتنى من غصونه ندما

وللسرى حكم وأمثال غير ما ذكر تظهر من خلال قصائده .

ونلاحظ بعد توضيح الحكم السابقة أن السرى قد أتى ببعض من الحكم ، وكانت مرآة تعكس ما يعتلج فى نفسه تجاه الناس والأصدقاء والحياة ، كما نلاحظ أن كل حكمة جاءت بأسلوب موجز متضمنة حكما مقبولا ، وتجربة صحيحة . أملاه عليه طبعه ، وقد جاءت بلا تكلف ولا تعمل ، وقد اشتمل بعضها على صور بيانية من استعارة وتشبيه ، وخاصة التشبيه الضمنى ، الذى يأتى ليكون دليلا على ما طرحه الشاعر من آرائه فى الحياة .

وبذلك تكون حكم السرى قد توفر فيها خصائص الحكم والأمثال العربية ، التى من أهم خصائصها الإيجاز ، والحكم المقبول المبنى على التجربة الصحيحة ، وأكثر الشعراء أمثالا : زهير والنابغة ، ثم المتنبى .

المبحث الثالث

سرقات السرى الشعرية

وقد أخذ السرى من الشعراء معانى وألفاظا ، عد بعضها من الأخذ الحسن ، وعد البعض الآخر من الأخذ القبيح .

وأورد الثعالبى(1) طائفة من شعر السرى المأخوذ من غيره .

يقول(2) : . . . وقرأت فى كتاب تفسير ابن جنى لشعر المتنبى بيتا واحدا أنشده السرى من قصيدة ، وذكر أنه أخذه من قول المتنبى [من الطويل] :

سقاك وحيانا بك الله إنما
على العيس نور والخدود كمائمه(3)

وهو [من المنسرح] :

حيا بك الله عاشقيك فقد
أصبحت ريحانة لمن عشقا

فكدت أقضى بأنى لم أسمع فى معناه أظرف منه ولا ألطف ولا أعذب ولا أخف » .

---

(1) فى كتابه اليتيمة ٢ / ١٢٠ وما بعدها

(2) اليتيمة ٢ / ١٢٠

(3) العيس : الجمال ، الكمائم : أغلفة النوار .

ويعقد الثعالبي فصلا في سرقاته قائلا في بدايته : « ولما وجدت السري أخذ جديد القميص في حسن السرقة ، وجودة الأخذ من الشعر ، كسرت هذا الفصل على سرقاته »(١)

ويأتي الثعالبي بنماذج كثيرة أخذها السري من غيره من الشعراء .

منها : قوله من قصيدة في سيف الدولة وذكر بعض غزواته [من الوافر] :

طلعت على الديار وهم نبات وأغمدت السيوف وهم حصيد

فما أبقيت إلا مخطفات حماها الخصر منها والنهود(٢)

وكرر هذا المعنى فقال [من الكامل] :

أفنت ظباك الروم حتى إنها لم تبق إلا ظبية أو ريما(٣)

وإنما سرقه من قول المتنبي [من الطويل] :

فلم يبق إلا من حماها من الظبا لمى شفتيها والثدى النواهد

وأرى : أن بيت السري الأول وهو « فما أبقيت ... الخ » من الأخذ المقبول ، ويتساوى مع بيت المتنبي في البلاغة ، والفضل في ذلك للمتنبي لسبقه ، وإن كان السري بعيداً عن المذمة ، ويسمى هذا الأخذ « إلماما

---

(١) اليتيمة ٢ / ١٢٠

(٢) مخطفات : من الخطف وهو : الاستلاب ، الخصر - بفتح فسكون : وسط الإنسان ، وكشح مخصر أي دقيق .

(٣) ظباك : يقصد بها سيوفك ، الريم : الظبية البيضاء الخالصة البياض وهي تسكن الرمل .

وسلخا ،(١) وهي من السرقة الظاهرة ، وأما بيت السرى الثانى فهو دون بيت المتنبي فى البلاغة ، لأن بيت المتنبى أجود سبكا ، وأكثر إيضاحا ، وقد ذكر السرى لفظتى : ظبية ، وريما ، وهما بمعنى واحد لاضطرار الوزن وهذا عيب ليس فى بيت المتنبى . وهذا الأخذ يسمى أيضا إلماما وسلخا .

وقال الثعالبي(٢)

قال السرى [من الوافر] :

وخرق طال فيه السير حتى حسبناه يسير مع الركاب

وهو مأخوذ من قول أبي الطيب [من الطويل] :

يخدن بنا فى جوزه وكأننا
على كرة أو أرضه معنا فى سفر

وأعتقد أن قول السرى هنا غير قول أبي الطيب ، فليس بينهما تشابه .

ويقول (٣) :

وقال السرى [من الكامل] :

وأحلها من قلب عاشقها الهوى
بيتا بلا عمـــد ولا أطناب

---

(١) قال سعد الدين التفتازاني فى المطول ص ٤٦٦ : « . . . وإن أخذ المعنى وحده يسمى أخذ المعنى وحده إلماما من ألم بالشيء : إذا قصده ، وأصله من ألم بالمنزل إذا نزل فيه ، ويسمى سلخا وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها ... وهو ثلاثة أقسام . . يعنى أن الثانى إما أبلغ من الأول أو دونه أو مثله »

وهو من قول أبي الطيب (من البسيط) :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت
بيتاً من القلب لم تضرب به طنبا

وهذا بحق مأخوذ على سبيل الإلمام والسلخ ، وبيت السرى أقل بلاغة من بيت أبي الطيب ، حيث كان بيت السرى أقل وضوحاً من بيت المتنبي .

ويقول[١] : وقال السرى (من الكامل) :

وأنا الفداء لمن مخيلة برقه عندى وعند سواى من أنوائه

وإنما ألم فيه بقول أبي الطيب (من البسيط) :

ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الديم

وهذا الأخذ كسابقه أيضاً .

وقال السرى[٢] من قصيدة [من الكامل] :

أغصان بان أغربت فى حملها فغرائب الورد الجنى ثمارها[٣]

وهو من قول ابن الرومى [من البسيط] :

غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان

وبيت السرى مأخوذ من بيت ابن الرومى على سبيل الإلمام والسلخ .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) اليتيمة ١٢٢/٢

(٣) البان : شجر معتدل الأغصان لين ، الجنى : من جنى الثمر بمعنى التقطه .

وهو أخذ حسن، حيث كان السرى أجود سبكا ، وأجمل تشبيها، فهو قد شبه القامات بأغصان البان، ولكنها أغصان بان غريبة ، ثمارها ورد جنى، ويقصد بالورد الخدود الوردية ، وهى فى قمة القامة ، وقد خلا بيت ابن الرومى من هذا التشبيه الرائع ، وإن اتفقا فى التشبيه بغصن البان .

ومن الأخذ الظاهر على سبيل الإلمام والسلخ قول السرى(١) ، [من الوافر] :

ونسأل عن معالمها محيلا
فنطلب من إجابتها محالا(٢)

وهو مأخوذ من قول ديك الجن [من الكامل] :

قالوا السلام عليك يا أطلال
قلت السلام على المحيل محال

وبيت السرى أجود سبكا فيكون بذلك أخذا حسنا .

ومن الإلمام والسلخ قول السرى(٣) [من الوافر] :

وكنت كروضة سقيت سحاباً
فأثنت بالنسيم على السحاب

وهو من قول المتنبى [من الكامل] :

وذكى رائحة الرياض كلامها
تبغى الثناء على الحيا فيفوح(٤)

(١) اليتيمة ٢ / ١٢٣
(٢) محيل : من قولهم أرض محلة أى جدبة ، والمحل : الجدب .
(٣) اليتيمة ٢ / ١٢٤
(٤) ذكى : طيب ، الحيا: المطر .

والبيتان متساويان فى حسن التشبيه ، وجودة التعبير ، والفضل للسابق ، وإن كان الثانى أبعد من المذمة .

وقال السرى[١] [من الطويل] :

وأغيد مهتز على صحن خده
غلائل من صبغ الحياء رقيق[٢]
وأحاطت عيون العاشقين بخصره
فهن له دون النطاق نطاق[٣]

وهو إلمام وسلخ من قول المتنبي [من الوافر] :

وخصر تثبت الأحداق فيه
كأن عليه من حدق نطاقاً

وبيت السرى أقل جودة من بيت المتنبى ، حيث قال السرى : أحاطت عيون العاشقين بخصره ، بينما قال المتنبى : وخصر تثبت الأحداق فيه ، والتثبيت أمكن من الإحاطة ، وإن تضمن كل من البيتين تشبيها لطيفا ، ويعد هذا أخذا قبيحاً .

وقال السرى من قصيدة فى سيف الدولة[٤] وذكر العدو [من البسيط] :

تروع أحشاءه بالكتب وهولها
خوف الردى ورجاء السلم مستلم

---

(١) اليتيمة ٢ /١٢٥

(٢) أغيد : ناعم ، وامرأة غيداء : ناعمة ، والغيد — بفتحتين — : النعومة .

(٣) النطاق : شقة من ملابس النساء .

(٤) اليتيمة ٢/١٢٦

ولا يشرب الماء إلا غص من حذر
ولا يهوم إلا راعه الحلم(١)

وهو إلمام وسلخ من قول أشجع السلمى [من الكامل] :

فإذا تنبه رعته وإذا غفا
سلت عليه سيوفك الأحلام(٢)

وبيت أشجع أبلغ من بيت السرى لتضمنه استعارة مكنية لطيفة فى قوله : « سلت عليه سيوفك الأحلام » ، وهو أجود سبكا أيضاً من بيت السرى .

وقال السرى(٣) [من الوافر] :

كأن خدودهن إذا استقلت
شقيق فيه من طل بقايا(٤)

وهو إلمام وسلخ من قول الناشىء الأوسط [من المتقارب] :

كأن الدموع على خدها
بقية طل على جلنار(٥)

وأخذ السرى أخذ مقبول لأن بيته أجود من بيت الناشىء الأوسط ،

---

(١) يهوم : من هوم الرجل تهويما : إذا هز رأسه من النعاس ، والمراد : ينام .
(٢) رعته : أخفته ، غفا : نام .
(٣) اليتيمة ١٢٧/٢
(٤) شقيق : ورد يسمى شقائق النعمان .
(٥) الجلنار : زهر الرمان .

فالتشبيه فى بيت السرى تضمن وصف الخدود والدموع بينما تضمن بيت الناشىء وصف الدموع فقط .

وقال السرى من قصيدة(١) [من الطويل] :

وطوقت قوماً فى الرقاب صنائعاً
كأنهم منها الحمام المطوق

وهو من قول المتنبى [من الوافر] :

أقامت فى الرقاب له أياد
هى الأطواق والناس الحمام

وهذا أخذ لبعض اللفظ مع تغيير لنظمه، ويسمى « إغارة ومسخا »(٢) ويعد من السرقة الظاهرة ، وهو من القسم المقبول لتساوى المأخوذ والمأخوذ منه فى حسن السبك ، ولكن المتنبى له فضل السبق فى ذلك والسرى أبعد من المذمة .

---

(١) اليتيمة ٢/١٢٨

(٢) يقول التفتازانى فى المطول ٤٦٤ — ٤٦٥ — : « وإن كان أخذ اللفظ كله مع تغيير لنظمه . . [أو أخذ بعضه لا كله يسمى هنا الأخذ « إغارة ومسخا » ويبين أنه ثلاثة أقسام :

الأول كان إن الثانى أبلغ من الأول لإختصاصه بفضيلة لا توجد فى الأول لحسن السبك أو الإختصار أو الإيضاح أو زيادة معنى فمدوح مقبول .

الثانى: إن الثانى دون الأول فى البلاغة لفوات فضيلة توجد فى الأول فمذموم مردود .

الثالث : إن كان الثانى مثل الأول فالثانى أبعد من المذمة والفضل للأول لسبقه .

وقال السرى(١) [من الرمل] :

لذ فيك المدح حتى خلته　　سمراً لم أشق فيه بسهر

وهو من قول ابن الرومى [من المنسرح] :

ياسرعا كان لى بلا كدر　　ياسمرا كان لى بلا سهر

وهذا أخذ لبعض اللفظ مع تغيير انظمه ، يسمى أيضا «إغارة ومسخا» وهو سرقة ظاهرة من القسم المقبول لتساوى البيتين فى الجودة والفضل للسابق .

وقال السرى(٢) (من الكامل :

تلك المكارم لا أرى متأخراً　　أولى بها منه ولا متقدما

عفو أظل ذوى الجرائم كلهم　　حتى لقد حسد المطيع المجرما

وهو من قول أبى تمام (من الكامل):

وتكفل الأيتام عن آبائهم　　حـــتى وددنا أننا أيتام

وأرى أن هذا الأخذ من النوع الذى يسمى « بالأخذ غير الظاهر » وهو : أن يتشابه المعنيان ، أى معنى البيت الأول ومعنى البيت الثانى ،

وهذا مقبول ، « وكلما كان — الأخذ — أشد خفاء ، بحيث لا يعرف أن الثانى مأخوذ من الأول إلا بعد إعمال روية ومزيد تأمل كان أقرب إلى القبول ، لكونه أبعد من الاخـــذ والسرقة ، وأدخل فى الإبتداع والتصرف »(٣) .

---

(١) اليتيمة ٢/١٢٩

(٢) اليتيمة ٢/١٢٢

(٣) المطول ٤٩٩

ومن أمثلة تشابه المعنيين قول جرير :

فلا يمنعك من أرب لحاهم سواء ذو العمامة والخمار(١)

وقول أبي الطيب في سيف الدولة ، يذكر خضوع بنى كلاب وقبائل العرب له :

ومن كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

فتعبير جرير عن الرجل بذى العمامة كتعبير أبي الطيب عنه « بمن في كفه منهم قناة » ، وكذا التعبير عن المرأة بذات الخمار و « بمن في كفه منهم خضاب »(٢) .

وقال السرى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة (من الكامل)(٣) :

ألبستنى النعمى التى غيرن لى ود الصديق فعاد منها حاسداً

فلتلبسن بها الثناء مسيراً ومخلداً مادام يذبل خالداً

والبيت الاول مأخوذ من قول البحترى (من الطويل):

وألبستنى النعمى التى غيرت أخى

على فأمسى نازح الود أجنبا

وهو سرقة ظاهرة ، وأخذ لاكثر اللفظ مع تغيير لنظمه ، ويسمى « إغارة ومسخا » وهذا بعيد عن المذمة لتساوى المأخوذ والمأخوذ منه في فضيلة السبك ، والفضل للسابق.

---

(١) أرب : حاجة ، لحاهم : جمع لحية ، أى : لايمنعك من الحاجة كون هؤلاء على صورة الرجال ؛ لان الرجال منهم والنساء سواء في الضعف — أنظر المطول ٤٩٨ —

(٢) المطول ٤٩٨

(٣) اليتيمة ٢ / ١٣٤ ، والديوان ٢ /١٠٣

ومثله تماماً قول السرى يمدح سلامه بن فهد (من الخفيف)[١] :

فسلام على جنابك والمنـ ـهل والظل والايادى الجسام

وهو من قول البحترى (من الخفيف) :

فسلام على جنابك والمنـ ـهل فيه وربعك المأنوس

وقال السرى يمدح أبان اليقظان عمار بن نصر بن حمـــدان (من الرمل)[٢] :

صادق البشر ترى ماء الندى يرتقى فى وجهه أو ينحدر
قلت إذ برز سبقا فى العلا أ إلى المجد طريق مختصر ؟

وهو من قول البحترى (من البسيط) :

مازال يسبق حتى قال حاســـده
له طـــريق إلى العليـــا مختصر

وبيت السرى أقل جودة من البحترى ، ولذا يعد هذا الاخذ من القسم المذموم المردود ، وهو إغارة ومسخ لبعض اللفظ مع تغيير لنظمه .

وهكذا نرى السرى الرفاء قد أخذ ممن سبقه معانى وألفاظا ، كان منهـا الأخذ الحسن ، والأخذ القبيح ، وهناك طائفة أخرى من شعره تدل على أنه قد نوع الاخذ والسرقة ، فكان منهـــا الخفى والظاهر ، المقبول والمردود[١] .

---

(١) الديوان ٣/٦٩٤ ، واليتيمة ٢/١٣٤
(٢) الديوان ٢/٢٣٦ واليتيمة ٢/١٢٩
(١) أنظر اليتيمة ٢/١٢٠ — ١٣٤

ما بين السرى الرفاء والخالديين

من تسارق أو توارد

كانت العداوة شديدة بين السرى الرفاء وبين الخالدين ـ وهما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان(١)

وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غـــيره ، ويذكر الثعالبى ، ذلك قائلا(٢) : « ولما جد السرى فى خدمة الأدب ، وانتقل عن تطريز الثياب إلى تطريز الكتاب ، فشعر بجودة شعـره ، ونابذ الخالديين الموصليين ، وناصبهما العداوة ، وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره ، وجعل يورق وينسخ ديوان شعر أبى الفتح كشاجم ، وهو إذ ذاك ريحان أهل الأدب بتلك البلاد ، والسرى فى طريقه يذهب وعلى قالبـه يضرب ، وكان يدس فيما يكتبه من شعره أحسن شعر الخالديين ، ليزيد فى حجم ما ينسخه ، وينفق سوقه ، ويغلى سعره » .

والثعالبى بذلك يتهم السرى بأنه أورد فى شعر كشاجم ماليس من شعره ، بل من شعر الخالديين ، ويدلل الثعالبى على ذلك ـــ فيما بعد ـــ : بأنه قد وجد زيادات فى بعض النسخ من ديوان كشاجم ليست فى الأصول المشهورة منها ، وأنه قد وجد هذه الزيادات بذاتها فى مجلدة بخط أبى عثمان سعيد بن هاشم ، وقد أتحف بها الوراق المعروف بالطرسوسى أبا نصر سهل بن المرزبان(٣) .

---

(١) سبق التعريف بهما .

(٢) اليتيمة ٢/١١٨ ، وانظر معجم الأدباء ١١/١٨٤

(٣) انظر اليتيمة ٢/١١٨

ويذكر الثعالبى : أنه رأى فى هذه المجلدة أبياتا كتبها أبو عثمان لنفسه وأخرى كتبها لأخيه ، وهى بأعيانها للسرى بخطه فى المجلدة المذكورة لأبى نصر ؛ فمنها أبيات فى وصف الثلج واستهداء النبيذ [من البسيط] :

يامن أنامله كالعارض السارى
وفعله أبداً عار من العار

أما ترى الثلج قد خاطت أنامله
ثوبا يزر على الدنيا بأزرار

نار ولكنها لسيت بمبدية
نوراً وماء ولكن ليس بالجارى

والراح قد أعوزتنا فى صبيحتنا
بيعا ولو وزن دينار بدينار

فامنن بما شئت من راح يكون لنا
ناراً فإنا بلا راح ولا نار

ومنها [من الوافر] :

ألذ العيش إتيان الصبيح وعصيان النصيحة والنصيح(١)

وإصغاء إلى وتر وناى إذا ناحا على زق جريح(٢)

غداة دجنة وطفاء تبكى إلى ضحك من الزهر المليح(٣)

---

(١) الصبيح : يقصد به شرب الخمر بالغداة ، والأصح : الصبوح .

(٢) الزق : يقصد به وعاء الخمر .

(٣) الغداة وقت طلوع الشمس ، الدجنة — بضم فسكون ففتح — من الغيم المظلم الذى فية مطر ، وهى ايضا الظلمة ، وطفاء : سحابة مسترخية الجوانب لكثرة مائها .

وقد حديت فلائصها الحيارى بحاد من رواعدها فصيح(١)
وبرق مثل حاشيتى رداء جديد مذهب يوم ريح(٢)

ويقول الثعالبى :

هكذا بخط السرى ، والذى بخط الخالدى « حاشيتى لواء ، ولست أدرى أأنسب هذه الحال إلى التوارد أم إلى المصالته(٣) ؟ وكيف جرى الأمر ؟ فبينهما مناسبة عجيبة ، ومماثلة قريبة فى تصريف أعنة القوافى ، وصياغة حلى المعانى(٤) .

والراجح عندى : أن السارق — لهذه الأبيات — هو أبو عثمان الخالدى ، وأنها فى الحقيقة للسرى الرفاء ، يرجح ذلك : أن الأبيات فيها روح السرى ، الذى أولع بوصف الخمر واستهداء الشراب ، ووصف الطبيعة ، بسلاسة وعذوبة ولين ، وقد تضمنت هذه الأبيات الوصف الذى يحبه ، والتشبيهات التى يتميز بها فى وصف هذه الأشياء .

ويرجح ذلك أيضا : كثرة تظلم السرى من إغارة الخالديين على شعره ، وإنشاء قصائد كثيرة فى اتهامهما بالسرقة من أدبه ، بينما لم يتهمه الخالديان بشيء من ذلك .

---

(١) حديت : من الحدو وهو سوق الإبل والغناء لها ، قلائص : جمع قلوص وهى الناقة الشابة ، الحيارى : جمع حيرى من الحير — بفتح فسكون — : وهو التحير فى الأمر ، والحادى : من يحدو الإبل بالغناء ليحثها على السير .

(٢) حاشيتى : مثنى حاشية ويقصد بها جانب الثوب

(٣) المصالتة : أن يأخذ الشاعر معنى بيت ولفظه من شاعر آخر وهو سرقة ظاهرة قبيحة تسمى « نسخا وانتحالا » .

(٤) اليتيمة ١١٩/٢

وإليك نماذج من شعر السرى يتهم فيها الخالديين بسرقة شعره :

قال السرى يتظلم من الخالديين والتلعفرى إلى سلامة بن فهد(١) [من الطويل] :

هل الصبر مجد حين أدرع الصبرا
وهل ناصر للشعر يوسعه نصرا(٢)

تحيف شعرى يا ابن فهد مصالت
عليه فقد أعدمت منه وقد أثرى(٣)

وفى كل يوم للغبيين غارة   تروع ألفاظى المحجلة الغرا

إلى أن يقول :

فمهلا أبا عثمان مهلا فإنما
يغار على الأشعار من عشق الشعرا

لأطفأتما تلك النجوم بأسرها
ودنستما تلك المطارف والأزرا(٤)

وقال السرى من قصيدة مدح بها أبا البركات لطف الله بن ناصر الدولة ويتظلم إليه فيها من الخالديين ، وقد ادعيا شعره وشعر غيره ومدحا به المهلبى وغيره(٥) [من البسيط] :

يا أكرم الناس إلا أن يعد أبا   فات الكرام بآباء وآثار

أشكو إليك حليفى غارة شهرا
سيف الشقاق على ديباج أفكارى

---

(١) اليتمة ٢/١٤٢

(٢) أدرع : ألبس الدرع فى الأصل   (٣) تحيف : اغتصب .

(٤) المطارف : جمع مطرف — بضم فسكون — وهى أردية من خز مربعة لها أعلام : الأزر - بضم فسكون - : جمع الإزار ، وهو معروف

(٥) اليتيمة ٢/١٤٢ ، ١٤٣

ذئبين لو ظفرا بالشعر فى حرم | لمزقاه بأنياب وأظفار
سلا عليه سيوف البغى مصلتة | فى جحفل من صنيع الظلم جرار
إن قلداك بدر فهو من لججى | أو ختماك بياقوت فأحجارى
باعا عرائس شعرى بالعراق فلا | تبعد سباياه من عون وأبكار
والله مامدحا حيا ولا رثيا | ميتا أولا افتخاراً إلا بأشعارى

وقال فى الخالدى الأصغر ، وقد ادعى شعره[١] [من السريع] :

لابد من نفثة مصدور | فحاذروا صولة مخدور
قد أنست العالم غاراته | فى الشعر غارات المغاوير
أثكلنى غيد قواف غدت | أبهى من الغيد المعاطير
أطيب ريحا من نسيم الصبا | جاءت بريا الورد من جور[٢]

وهكذا يؤكد السرى من خلال شعره أن الخالديين كانا يغيران على شعره وشعر غيره .

وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن النديم ما يؤكد أن الخالديين كانا يغصبان الشعر من صاحبه حيا أو ميتا ، قال :[٣] « وقال ابن النديم : قال لى الخالدى[٤] — وقد تعجبت من كثرة حفظه — أنا أحفظ ألف سفر

---

(١) اليتيمة ٢/١٤٤
(٢) جور : مدينة فيروزاباد ، ينسب إليها الورد .
(٣) معجم الأدباء ١١/٢٠٩
(٤) يقصد به أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدى ، وإنما كان هو المقصود لأن هذا الكلام ورد فى ترجمة أبى عثمان . سعيد بن هاشم الخالدى .

كل سفر مائة ورقة ، وكان هو وأخوه مع ذلك إذا استحسنا شيئا غصباه صاحبه حيا أو ميتا ، لا عجزا منهما عن قول الشعر ، ولكن كذا كان طبعهما ، وكلام ابن النديم هذا فيه موافقة للسرى الرفاء أو مجاراة له والله أعلم » .

وبهذا يكون السارق فى غالب الظن هما الخالديان عندما نجد اتفاقا فى اللفظ والمعنى أو فى المعنى فقط عند السرى والخالديين .

سرقات أبى بكر محمد بن هاشم الخالدى

من السرى

وسأورد نماذج من الشعر اتفق وجودها أو وجود معناها عند السرى وعند الخالديين ، وكما قلت : إن الراجح حينئذ أن يكون السارق هو أحد الخالديين .

قال أبو بكر(١) — محمد بن هاشم الخالدى — [من مجزوء الرمل] :

قام مثل الغصن المياد فى غض الشباب(٢)

يمزج الخمر لنا بالصفو من ماء الشراب

فكأن الكأس لما ضحكت تحت الحباب(٣)

وجنة حمراء لاحت لك من تحت النقاب(٤)

---

(١) اليتيمة ٢ / ١٨٤

(٢) المياد : المتمايل من ماد : تمايل ، غض : ناضر .

(٣) الحباب : الفقاقيع على سطح الوعاء .

(٤) الوجنة : ما ارتفع من الخد .

وقال السرى [من الكامل] :

وكأن كأس مدامها لما ارتدت حبابها
توريد وجنتها إذا مالاح تحت نقابها

فالخالدى فى ذلك سارق ، وتعد سرقته محضة وهى مذمومة ، تسمى « نسخا وانتحالا » وهى من السرقة الظاهرة المعيبة ، لأن اللفظ قد أخذ مع تبديل بعض الكلمات بما يراد منها(١) ، واتفق الاثنان فى تشبيه الكأس التى يعلوها الحباب بوجنة حمراء وضع عليها النقاب .

ومثل ذلك قول أبى بكر(٢) [من الطويل] :

كأن حباب الكأس فى جنباتها
كواكب در فى سماء عقيق

وقد أخذه من قول السرى يصف الفالوج ويعبث بأبى بكر الخالدى [من الطويل] :

كأن بياض اللوز فى جنباته
كواكب لاحت فى سماء عقيق

واتفاق البيتين فى الوزن والقافية فضلا عن اتفاقهما فى اللفظ والمعنى مما يعد مذموما جدا(٣)

---

(١) أشار المطول ص ٤٦٣ إلى أن : النسخ والانتحال هو أن يؤخذ اللفظ كله من غير تغيير لنظمه ، وكذا مافى معناه بأن يبدل بالكلمات كلها أو بعضها ما يراد منها .
(٢) اليتيمة ٢ / ١٨٤
(٣) انظر المطول ٤٦٦

وقال أبو بكر(١) [من المنسرح] :

والليل من فتكة الصباح به كراهب شق جيبه طربا

وللسرى فى مثله [من المنسرح] :

كراهب حن للهوى طربا فشق جلبابه من الطرب

وأبو بكر أخذ هنا المعنى مع بعض اللفظ ، والبيتان متساويان من حيث البلاغة ، فيعد أخذا مقبولا والفضل للسابق ، وهى من أقسام السرقة الظاهرة التى تسمى « إغارة ومسخا » .

ومثله قول أبى بكر يصف كانون نار [من المنسرح] :

ومقعد لا حراك ينهضه وهو على أربع قد انتصبا
مصفر محرق تنفســـه تخاله العين عاشقا وصبا
إذا نظمنا فى جيده سبجا صيره بعد ساعة ذهبا(٢)

وقال السرى فى وصف كانون نار أيضا [من المتقارب] :

وذو أربع ولا يطيق النهوض ولا يألف السير فيمن سرى
نحمله سبجا أسودا فيجعله ذهبا أحمرا

فقد تساوى قول أبى بكر وقول السرى فى وصف الكانون ؛ وأخذ بعض اللفظ لا كله والفضل لمن سبق فى هذا المعنى .

ومثله قول أبى بكر من القصيدة السابقة [من المنسرح](٣)

---

(١) اليتيمة ٢ / ١٨٥
(٢) السبج : بفتحتين : الخرز الأسود .
(٣) اليتيمة ٢ / ١٨٦

فما خبت نارها ولا وقفت خيول لهو جرت بنا خببا(١)

وساحر الطرف لانقاب له إذ كان بالجلنار منتقبا(٢)

تقطف من ثغره ووجنته أنامل الطرف زهرة عجبا

شقائقا مذهبا يرى خجلا وأقحوانا مفضضا شنبا(٣)

ومثله للسرى [من الطويل] :

سفرن فلاح الأقحوان مفضضا على القرب منا والشقيق مذهبا(٤)

سرقات أبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدى

من السرى

وأورد الثعالبي فى اليتيمة نماذج شعرية قالها أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى واتفق وجود معناها فى شعر السرى الرفاء، ولم يطلق عليها الثعالبى سرقة، بل عدها مما وقع لأبى عثمان فيه التوارد مع السرى أو التسارق، ونرجح أن أباعثمان سرقها من السرى للأسباب التى سبق ذكرها

---

(١) الخبب : ضرب من العدو .

(٢) الجلنار : زهر الرمان

(٣) شقائق : الورد المسمى بشقائق النعمان، وهو الذى اكتشفه النعمان بن المنذر فى حديقته، الأقحوان : ورد له نور أوراقه فى شكلها أشبه شيء بالأسنان، الشنب - بفتحتين - الحدة فى الأسنان، وقيل : برد وعذوبة فيها .

(٤) سفرن : كشفن وجوههن .

وإليك بعضا من هذه النماذج :

قال أبو عثمان(١) [من المنسرح] :

غيوم تمسك أفق السماء وبرق يكتبها بالذهب

وهذا الأخذ يسمى « نسخا وانتحالا » وهو سرقة ظاهرة معيبة لأن الشطر الثانى مأخوذ بلفظه ومعناه ، وقد اتفق البيتان فى الوزن والقافية مما يجعل السرقة معيبة جدا

وقال أبو عثمان(٢) [من الخفيف] :

والجو فى حلة ممسكة قد كتبتها البروق بالذهب

للسرى فى مثله (من المنسرح) :

وقفتنى مابين هم وبوس وثنت بعد ضحـــكة بعبوس

ورأتنى مشطت عاجاً بعاج وهى الآبنوس بالآبنوس

وللسرى فى مثله [من الوافر] :

رأت شيباً يضاحكها ، فصدت
وكان جزاؤه منها العبوسا

وقالت إذا رأت للمشط فيه
سواد لايشا كلها نفيسا

تلق العاج منك بمشط عاج
ودع للآبنوس الآبنوسا

ومثل هذا الأخذ يسمى « إغارة ومسخا » حيث أخذ اللفظ مع تغيير لنظمه ، وتساوى المأخوذ والمأخوذ منه فى البلاغة ، والفضل للسابق

(١) اليتيمة ٢ / ١٩٩ (٢) اليتيمة ٢ / ٢٠١

مصادر البحث ومراجعه

١ - أساس البلاغة - للزمخشري - دار بيروت للطباعة والنشر .

٢ - الأساس فى النقد والبلاغة - تأليف د. أحمد الحوفى ود. عبدالله الوهيبى وآخرين ط سابعة وزارة المعارف السعودية عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

٣ - أسس النقد الأدبى - للدكتور أحمد بدوى ، ط ثالثة ١٩٦٤م نشر نهضة مصر .

٤ - الأعلام - لخير الدين الزركلى - الطبعة الثالثة .

٥ - أنباه الرواة على أنباه النحاة - لجمال الدين القفطى - تحقيق محمد أبو الفضل ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠م

٦ - بدائع البدائه - لعلى بن ظافر الأزدى - على هامش معاهد التنصيص - ط القاهره ١٣١٦ هـ

٧ - البداية والنهاية - للحافظ بن كثير الدمشقى أبى الفداء - مكتبة المعارف ببيروت ط ثانية ١٩٧٧م

٨ - البحث البلاغى والنقدى بين قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى - للدكتور المحمدى الحناوى - مخطوط - رسالة دكتوراه .

٩ - بغية الإيضاح - عبد المتعال الصعيدى - ط خامسة - نشر وطبع مكتبة الآداب بالجماميز - القاهرة .

١٠ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة - للحافظ جلال الدين السيوطى - ط أولى ١٩٢٦م

١١ - البلاغة العربية - تاريخا وقاعدة وتطبيقا - الجزء الثانى - للدكتور المحمدى الحناوى - ط ثانية ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

١٢ — البلاغة الواضحة — لعلى الجارم ومصطفى أمين، ط تاسعة عشرة ١٣٧٦هـ — ١٩٦٦م طبع شركة مكملان بلندن .

١٣ — تاريخ بغداد — أو مدينة السلام — للحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى — نشر دار الكتاب العربى بيروت .

١٤ — تيارات أدبية من الشرق والغرب — د. إبراهيم سلامة — مطبعة مخيمر ١٩٥١ م

١٥ — خزانة الأدب — لابن حجة الحموى — دار القاموس الحديث — مكتبة البيان — بيروت — بدون تاريخ .

١٦ — دائرة المعارف — للقرن العشرين — لمحمد فريد وجدى — دار المعرفة — بيروت — لبنان .

١٧ — ديوان جرير — دار صادر ودار بيروت ١٩٦٠ م

١٨ ديوان الخالديين تحقيق د. سامى الدهان دمشق ١٩٦٩م .

١٩ — ديوان السرى الرفاء — ط بغداد تحقيق د . حبيب حسين الحسنى .

٢٠ — ديوان المتنبي تحقيق الأستاذ فريدرخ ديتريصى (برلين ١٨٦١م)

٢١ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — لأبى الحسن السنتريني — تحقيق د. إحسان عباس — دار الثقافة بيروت ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م

٢٢ — ديوان المعانى — لأبى هلال العسكرى — نشر مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٢ هـ .

٢٣ — زهر الآداب وثمر الألباب — لأبى اسحق الحصرى القيروانى، المطبعة الرحمانية بمصر .

٢٤ — سر الفصاحة — لابن سنان الخفاجى — تحقيق عبد المتعال الصعيدى — طبع صبيح ١٩٦٩

٢٥ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — للعماد الحنبلى — نشر مكتبة القدسى — القاهرة .

٢٦ — الشعر والشعراء — لابن قتيبة — مطبعة الفتوح الأدبيـــة ١٣٣٢هـ — القاهرة .

٢٧ — الصناعتين — لأبى هلال العسكرى — تحقيق محمد أبو الفضل وعلى البجاوى ط ثالثة .

٢٨ — طبقات الشافعية الكبرى — لتاج الدين السبكى — تحقيق محمود محمد الطناحى وعبدالفتاح محمد الحلو ، ط أولى — مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م .

٢٩ — طبقات فحول الشعراء — لابن سلام الجمحى — تحقيق محمود محمد شاكر — مطبعة دار المعارف .

٣٠ — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده — لابن رشيق القيروانى — تحقيق محمد محيى الدين — دار الجيل — بيروت .

٣١ — الفهرست — لابن النديم — المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤١هـ .

٣٢ — فوات الوفيات — لابن شاكر الكتبى — تحقيق محمد محيى الدين ط مصر ١٩٥١م

٣٣ — فى الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقى — ملتزم النشر دار الفكر العربى .

٣٤ — القاموس المحيط — المطبعة الحسينية ١٣٣٠ هـ

٣٥ — الكامل فى التاريخ — لعلى بن أبى الكرم بن الأثير الجزرى — تحقيق نخبة من العلماء نشر دار الكتاب العربى ببيروت ط ثانيه ١٣٨٧-١٩٦٧ م

٣٦ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — لحاجى خليفة — طبع الأوفست — مكتبة المثنى ببغداد .

٣٧ — لسان العرب — لابن منظور الأفريقى المصرى — دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ١٣٧٤

٣٨ — مختار الصحاح — لأبى بكر الرازى — ترتيب محمود خاطر — نشر دار الفكر ببيروت .

٣٩ — مروج الذهب للمسعودى — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط ثالثة — القاهرة ١٩٥٨م

٤٠ — مسالك الأبصار — لشهاب الدين بن فضل الله العمرى — مخطوطة آيار صوفيا — ومخطوطه طوبقبو سراى .

٤١ — المطول : لسعد الدين التفتازانى — مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ .

٤٢ — معجم الأدباء — دار بيروت — لبنان — ومطبوعات دار المأمون نشر دار إحياء التراث العربى — بيروت .

٤٣ — الموشح على مآخذ العلماء والشعراء للمرزبانى — تحقيق على البجاوى ١٩٦٥ طبع ونشر نهضة مصر .

٤٤ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — لأحمد المقرى التلمسانى دار صادر بيروت ، تحقيق د إحسان عباس .

٤٥ — نقد الشعر — لقدامة بن جعفر — تحقيق كمال مصطفى ١٩٦٣م ط ثانية عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٤٦ — نهاية الأرب — لشهاب الدين النويرى — طبعة دار الكتب المصرية . - المؤسسة العامة للتأليف والنشر .

٤٧ — هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين — لإسماعيل باشا البغدادى — طبع الأوفست ، مكتبة المثنى بغداد .

٤٨ — الوافى بالوفيات — لصلاح الدين الصفدى — من سلسلة النشرات الإسلامية التى تصدرها جمعية المستشرقين الألمانيه .

٤٩ — الوساطة بين المتنبي وخصومه — للقاضى الجرجانى — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى طبع عيسى الحلبى وشركاه .

٥٠ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — لابن خلكان — تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت .

٥١ — يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر — لأبى منصور الثعالبى — دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب
٧٢٣١ / ١٩٨٤ م





كتب المؤلف :

١ ــ البلاغة العربية ــ تاريخا وقاعدة وتطبيقا ــ الجزء الأول ــ دار الطباعة المحمدية سنة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

٢ ــ البلاغة العربية ــ قاعدة وتطبيقا ــ الجزء الثانى ــ مطبعة الطويل ١٩٧٩ م

٣ ــ فض الختام عن التورية والاستخدام للصفدى ــ تحقيق ودراسة دار الطباعة المحمدية ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م

٤ ــ دراسات حول الاعجاز البيانى فى القرآن دار الطباعة المحمدية ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٤ م

٥ ــ شعر السرى الرفاء فى ضوء المقاييس البلاغية والنقدية . دار الطباعة المحمدية ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٤ م

٦ ــ دراسة حول السرقات الأدبية ومآخذ المتنبى فى القرن الرابع دار الطباعة احمدية ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٤ م

٧ ــ من روائع البيان القرآنى والنبوى مطبوع بالأوفست ١٠٤٤هـ ــ ١٩٨٤ م

٨ ــ الالتفات وأثره البلاغى ــ بحث نشر فى مجلة كلية الشريعة واللغة العربية بأبها بالسعوديه ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م

٩ ــ من البحوث البلاغية عنـــد ابن قتيبة : مخالفة ظاهر اللفظ معناه ــ صورها ومسمياتها ــ بحث نشر فى حولية كلية اللغة العربيه بالقاهرة ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤م